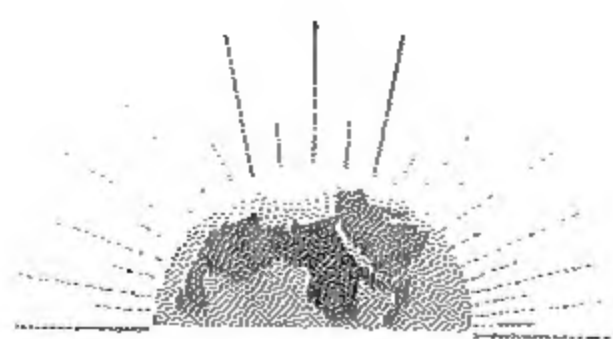


خالد عمر بن ققه

أيام الفزع في الجزائر



Bibliotheca Alexandrina
00117134



مركز
الحضارة
العربية

أيام الفزع في الجزائر

رؤية صحفي في قلب الأحداث

خالد عمر بن ققنه

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ١٣٩٩٥ / ٩٨

الترقيم الدولي : 5-117-291-977



رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكتروني
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

خالد عمر بن ققه

أيام الفزع في الجزائر

رؤية صحفي في قلب الأحداث

البريد الإلكتروني	
رقم الهاتف	965
الاسم	م. ب. ب.
اللقب	009



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وبعد

هذه الأوراق تروي جانباً من حياة الكاتب . وأيضاً جوانب من حياة الجزائريين - عامتهم وخاصتهم - ففيها تتداخل القضايا الخاصة بالقضايا العامة . والإرهاب بالجهاد ، والشفافة بالسياسة . والتمرد على السلطة بتصفية الحسابات بناء على تركة ثقيلة من الهموم المشتركة وغير المشتركة ، لذلك تنطلق من المشكلة الفردية، لكنها في نفس الوقت تركز عليها ضمن السياق العام للأحداث التي تواجهها الجزائر .

وبالعودة إلى مطالعة وقراءة الأحداث التاريخية للجزائر بوعي ، سنجدتها واجهت مصائب أكبر ، وحالات فوضى أعم ، وصراع بين الأفراد والجماعات أشمل، وهزات زلازل اجتماعية أوسع ، حتى أنه في بعض الأحيان دفعها ذلك إلى توتر العلاقات الاجتماعية ، وكانت التكلفة في كل ذلك باهظة ، ومع ذلك كله فقد ذهب الفعل السيء وبقيت الجزائر ، فهل ستبقى اليوم بعد كل المجازر ؟ .

لا يراودني أي شك في بقاء الجزائر " الأرض ، السيادة ، الشعب " ، بل

إنني أعتقد أنها ستعود أقوى مما كانت عليه وهذا ليس تفاؤلاً أو حتى مجرد أمنية ، ولكنه حقائق التاريخ ، رغم أن كل قوى الشر الداخلية والخارجية تعمل على إلغائها من الوجود ، صحيح أن هناك بدائل ستحل لمواجهة الدولة والقضاء عليها وقد تفلح بعض الوقت ، ولكن لن تدوم .

غير أن البقاء والعودة القوية مرهونان باكتشاف الجزائريين لأنفسهم وللعالم من حولهم ، سواء من خلال قراءة الأفعال الماضية المتراكمة أو من خلال فهم ما يحدث الآن ، مع الاعتراف بأن هناك جريمة كبرى تواجهها بلادنا شاركنا فيها جميعاً ، ولمنع استمراريتها أو تكرارها علينا أن نعمل جاهدين على تثبيت قواعد الدولة على ركائز متينة متحدين ما يطرح الآن من تطورات وآراء تريد تكريس هذا الواقع المرير السيء .

فمعظم الآراء والتحليلات تركز على الصورة السوداء للجزائر، وهي بالفعل كذلك ، ولكن من غير المعقول أو المقبول أن تستمر تلك الصورة الواقعية حيناً والمضخمة أحياناً أخرى، لأن واقع الأحداث واستمراريتها يقول عكس ذلك ، غير أننا لاننكر أن هناك فزعا في الجزائر تطور مع الأيام ليتحول من فزع خاص بأفراد أو نخب إلى فزع عام لكل المجتمع ، والشعور به في حد ذاته حالة صحية ، وهو ما سيتابعه القارئ في هذه الصفحات .

إنها صفحات كتبت بآهاتي وآلامي ، عايشة أحداثها واندمجت فيها وتفاعلت معها سلباً أو إيجاباً ، قبولاً أو نفوراً، تضامناً أو رفضاً ، تعاوناً أو صراعاً ، ورغم ذلك كله عشت أياماً أنتظر التحول المرتقب، التحول في

المواقف والأحداث وحتى الأفعال ، لكن ذلك لم يحدث .

ولم أكن -آنذاك - على وعي تام بما يحدث ، بالرغم من أن كل مظاهر التحول نحو الجزائر التي نعرفها أو تلك التي رسمنا صورتها في أذهاننا كانت واضحة ، أو على الأقل بادية في التشكل ، جزائر جماعات ، وليست جزائر لكل الجزائريين.

لقد كانت العاطفة هي التي تحركنا ، فوراثة الدين الاسلامي والاقتناع به، والاحتماء به أو رهاننا عليه لحل مشاكلنا، كل هذا جعلنا لائمين في لحظات الحسم بين الدين في عمقه وصفاء رسالته ، وبين أخطاء البشر الظاهرة والخفية باسم الدين ، أي إننا التقينا نحن والحاملين لشعاراته والمعادين له على أرضية واحدة ، وكان المفروض أن يبدأ فزعنا على الإسلام وليس على أنفسنا ، وبما أننا لم نفعل فقد انتهى بنا الأمر إلى الهروب أو الاغتيال أو السجن . وأمر الله سبحانه نافذ فينا لا محالة .

لاشك أن الأغلبية منا كانت مؤيدة للمشروع الإسلامي - بنسب متفاوتة - لكنها أرادت ركوب الموج من أجل أهداف بشرية متضاربة - في الغالب - مع أهداف الدين وإن حَمَلَتْ شعاراته ، وحين كان البعض منا يرفض تلك المقولات التي تطرح باسم الدين كان يقابل بسخط واستنكار من الذين تحركهم العاطفة ، أو من أولئك الذين يقدمون مصالحهم على كل هدف آخر نبيل وهادف .

لذلك كله تحول الأنصار إلى قوة مدافعة ، وتم استعراض القوة في شوارع العاصمة كما يروي الفصل الأول من هذا الكتاب، ثم تطور الفرع

ليتحول من أسلوب الهجوم بالكلمات إلى ممارسة العمل الإجرامي مباشرة
أي الاغتيالات التي طالت الشرطة ، وبعد خمسة أشهر فقط تجاوزت
الحدود لتنتهي حياة الرئيس "محمد بوضياف" علانية وأمام الملا وكاميرات
التلفزيون .

إذن لاغزو حين يعم الفرع ليس لكون جماعات الإجرام أصبحت قوة
نافذة ؛ وإنما لأنها متعددة وكثيرة ولا يجمعها هدف واحد ، هذا من ناحية ؛
ولأنها بدأت توجه سلاحها ضد النخبة من ناحية أخرى ، وكان الصحفيون
هم وقود تلك الحرب .. وبذلك انتقل الفرع إلى كل مثقف .. ونتيجة لكل
ذلك أصبحنا - نحن الصحفيين - نقضي ليلنا ونهارنا في حال ترقب لخطر
قادم وقاتل ، ولم تطل العملية ، لأن كثيرين منا هاجروا ، وآخرين اغتيلوا ،
وأبضا كثيرين تركوا المهنة .

هكذا تم إفراغ البلاد من مثقفيها ، وفتحت المجال أمام أولئك الذين
صمدوا إما لأنهم يستفيدون من العنف ، أو لأنهم أكثر شجاعة من
الآخرين ، أو لأسباب أخرى ، وواضح أن الذين يستفيدون من الإرهاب
يشكلون أغلبية المستغلين في السياسة الآن في الجزائر ، وحتى نكون
منصفين فإن جل العائلات الجزائرية قد طالتها الإرهاب ، وهناك عائلات
أبادت بكاملها .

ولكي لا ندخل في تفاصيل كثيرة يعرفها القارئ ، وبالتأكيد تابعها في
الإعلام المختلفة، نركز في هذه الصفحات على أيام الفرع الخاصة
عرد ، ويعائلتي ، وبالطبع فإن ذلك سيكون تعبيراً عن الواقع الجزائري ،
مع اختلاف تجارب الأفراد بالطبع ، لكنه اختلاف لا يخرج عن أيام الفرع

التي واجهها ويواجهها إلى الآن كثيرٌ من الجزائريين.

وسواء أطالت أيام الفزع في المستقبل أم قصرت ، فإنها خلال سبع سنوات تقريبا قد كشفت عن قضايا أساسية في حياة الجزائريين منها :

(١) أن الجزائريين أصبحوا يميزون بوضوح بين الإسلام - شريعة ومنهج حياة - وبين النصب والاحتياال باسم الإسلام .

(٢) غاب الحماس الشعبي الذي ساد خلال بداية التعددية ، وحلت بدلا عنه النظرة الواقعية ، والرهان على حل المشكلات فردية أو أسرية دون انتظار لعمل الأحزاب أو حتى الدولة .

(٣) انهيار ملحوظ في القيم الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية نظراً لضغط صندوق النقد الدولي ، وتدميره للطبقة الوسطى .

(٤) زيادة الحب "للوطن" خصوصاً بعد أن رُفض الجزائريون في عدة دول ، ونُظر إليهم جميعاً على أساس أنهم إرهابيون .

(٥) التعايش مع الإرهاب على اعتبار أنه ظاهرة تجتاح العالم كله وستزول مع الأيام ، وهذا أخطر ما نتج عن الفزع .

(٦) زيادة روح الأنانية وحب الذات ، والتي يراها بعض المحللين الاجتماعيين ظاهرة نابعة من الوضع الراهن ، وستختفي بتغيير الظروف والمعطيات .

تبقى نقطة أخيرة هي أن بعض الكتاب قد طلبوا مني - مشكورين - تأجيل كتابة هذه الصفحات حتى ينتهي الإرهاب أو حين يتقدم بي العمر

ليكون ذلك تجربة للأجيال، وبالطبع فيأتي مختلف معهم ، لأن التنبيه بخطورة الفزع ضرورة حضارية، ثم إنني أسمى بمثل هذه الكتابات لمحاصرته في البلاد العربية الأخرى حتى لا تنفست كل الدول القطرية ولحظتها سيصبح لا وجود لوطن عربي ، ثم إن العمر قد تقدم بنا بالفعل وهو لا يقاس بالأيام فقط ، ولكن بدرجة المعاناة .

إن بلداً مثل الجزائر إلى وقت قريب كانت تمثل ثقلًا في الوطن العربي في بوابته الغربية. لكن حين واجهت مصيرها الحالي ، طعنت بآلاف الخناجر في الداخل والخارج ، وانتظرت بعض الحركات والأنظمة في العالم الإسلامي سقوطها، وربما لا يدرون أن ذلك سيكون سقوطاً لهم أيضاً، لذلك فإنه علينا تصحيح الصورة ؛ حتى لا نظل ضبابية ، ويظل الاعتقاد سائداً عن أن سلطات الدولة هي المسئولة عما يقع .

لقد اخترنا طريق الديمقراطية على حساب الدولة فكانت النتيجة ما نراه، وقد اختار غيرنا الدولة ورضوا بالاستبداد والديكتاتورية فنجوا ونجت البلاد، ولن تكون الجزائر هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في العالم ، ولنقرأ تجربة أمريكا في حربها الأهلية أو تجربة الاتحاد السوفييتي في الوقت الراهن، لنعرف أن ما يقع في الجزائر قليل مقارنة مع التجارب الدموية مع شرية ، غير أننا مع هذا كله نظل نرفض الإرهاب ما دمنا أحياء ، وننتظر م الفزع حتى لو طال .

والله من وراء القصد

خالد عمر بن ققه

القاهرة في 1998/8/29

(

الفصل الأول

كومانندوس أفغان في شوارع العاصمة

- * كثير من المثقفين أيدوا جبهة الإنقاذ ، فأصبحوا بعد وقت قصير أول ضحاياها .
- * "عباسي مدني" يحرف مقولات "ابن خلدون" ، وأتباعه يعتبرون حديثه للصحافة انتصاراً .
- * جماهير "اللحظة الزمنية" كانت تتحرك عبر الولايات المختلفة لإظهار قوة الإنقاذ
- * "مولود حمروش" - رئيس الحكومة - يحذر ، وقادة الإنقاذ يطلبون من أتباعهم الدفاع عن أنفسهم.
- * التعطش إلى الدم ، كان منذ البداية .
- * أول عملية عسكرية ، واحساس بالفرع في "الجزائر والمغرب" .

كل شيء تغير في حياة الجزائريين بمجرد إقرار التعددية واعتماد الأحزاب. فقد أصبح الكلام مباحاً ، والحرية عامة ، ومع الأيام لم يعد في مقدور أحد إيقاف زحف الكلام وزحف الفعل السياسى في مرحلة أولى ، ثم الفعل الاجتماعى بعد ذلك .

وعم الفرح الجزائري لكنه لم يتم لأن اليأس بدأ يتسرب إلى نفوس كثيرين منا ، يأس مبعثه التحول من نظام الحزب الواحد - جبهة التحرير الوطنى - إلى نظام حزب آخر أشد قبضة هو الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، التي حاولت منذ ظهورها أن تتحول إلى سلطة حاكمة حتى قبل إجراء الانتخابات بما في ذلك المحلية .

غير أنه رغم الخوف الذي انتاب كثيرين منا ، سواء أولئك الذين يرفضون المشروع الإسلامى ، أو الذين يؤيدونه - ولكل أسبابه ودوافعه - فإن كثيراً من المثقفين كانوا يؤيدون ظهور قوة إسلامية ... إنهم جميع أولئك الذين يؤمنون بالتوجه العربى الإسلامى للجزائر ، وقد كنت أحدهم ، والمدهش أن هؤلاء كانوا هم ضحايا الإرهاب بعد ذلك ، منهم من قُتل ، ومنهم من ترك مهنته ، ومنهم من هاجر ، وقد كنت من الذين هاجروا

؛ لأسباب سيأتى ذكرها في الفصول اللاحقة .

لاشك أن الذين اغتالتهم جماعات العنف المختلفة - من أصدقائنا وزملائنا في المهنة - قد انتابهم الفزع أياً ما وليالى ، وإن كان قليل منهم أُغتيل وهو على اعتقاد أنه غير معنى بأحداث العنف لأنه ليس طرفاً في الأزمة ، أما الذين تركوا - المهنة - أو ما يزالون فيها - فإن الرعب لم يتركهم إلى الآن ، كما لم يتركنا نحن الذين هاجرنا ، وإن كان بالطبع بدرجة أقل .

إذن فالفزع ليس قضية خاصة - رغم أن هذا الكتاب يروى جانباً من حياتى الصحفية - ولكن قضية عامة ، بدأت مع الصحافة أولاً من خلال الضغوطات والتخويف من الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي آنذاك في عز مجدها وقوتها، وكانت المجلة التي أعمل صحفياً فيها - مجلة الوحدة - إحدى المؤسسات التي اعتبرت قلعة معادية لها منذ البداية، فقط لأنه تخرج فيها العديد من الذين يصنعون الراى العام وسيطر عليها في وقت سابق التيار اليسارى ، فجاءت الإنقاذ لتحاسبنا على الماضي .

ففي برنامج تليفزيونى اسمه "لقاء الصحافة" كان يعده ويقدمه الصحفي القدير "مراد شين" اعتبر الدكتور "عباسي مدنى" أن مجلة الوحدة هي مجلة "الوخدة" بمعنى المصيبة - حسب العامية الجزائرية - وذلك رداً على سؤال وجهه إليه مديرها العام "صلاح شيكرو" ، وحين كان عباسي يرد على الصحفي بدا الشرر يتطاير من عينيه ، مع ابتسامة يحاول اظهارها بين الحين والآخر .

وفي نفس الأسبوع اعتبرت صحيفة "المنقذ" - لسان حال الجبهة الإسلامية للإنقاذ - أن الشيخ قد انتصر على الصحافة "..." وفي نفس هذا الأسبوع أيضاً كتبت مقالاً منتقداً ما طرحه الدكتور عباسي في معرض حديثه عن العلامة "ابن خلدون"، ومع أن الدكتور عباسي قريب من مجال تخصصي الذي هو علم الاجتماع - حيث إنه متخصص في التربية، إلا أن ما ذكره عن ابن خلدون كان مجافياً للحقيقة العلمية والتاريخية.

غير أن مقالتي قوبل بموقف سلبي من الكثيرين، لكونه ينقد الشيخ عباسي، وهو في نظر بعض أنصاره منزه عن النقد، كما لأمني الأصدقاء عنه؛ لكونه يعرضني إلى الخطر في المستقبل، ذلك أن بعض الأنباء شاعت في ذلك الوقت مفادها: أن جبهة الإنقاذ تقوم بجمع مقالات كل الصحفيين المتقدين لها لمحاسبتهم بعد ذلك، وقد وقع هذا بالفعل بعد ثلاث سنوات، حيث تم اغتيال العديد من الزملاء.

كنت أعتبر أن مثل هذه الأقوال مجافية للحقيقة، وتعمل على تشويه صورة الإسلاميين، لكنني بعدها ومن خلال تجوالي في عدة مناطق داخل الجزائر اكتشفت العداء الذي يكنُّ للمشققين، علماً بأن هؤلاء وفي ظل التعبئة الجماهيرية التي قامت بها الإنقاذ التحقوا بها طوعاً أو كرهاً، وهناك من كان معادياً لها ولقياداتها ثم وجدناه بعد مدة على رأس قائمة المسؤولين الكبار فيها.

والواقع أن المتخصصين الكبار في الشؤون الإسلامية - إن جاز التعبير - قد زادوا من خوفنا، خصوصاً بعد تأكيدهم على أن بعضاً من القضايا التي

تطرحها الإنقاذ مخالفة للشرع ، لكن الغريب أن هذه التعليقات والآراء لم تكن تتجاوز الجلسات السرية ، مما يعنى أن المواجهة لم تكن حقيقية ، وربما يعود ذلك إلى كون الجيل الجديد في جبهة الإنقاذ افتك الدين والمكانة من الجيل القديم ، معتبره امتداداً لسلطة ظالمة أو على الأقل مبرراً لجرائمها .

إذن لم يكن في وسع جيلنا اللجوء إلى أي حضمن فكري ، لأن كل المشتغلين في الفكر والسياسة كانوا يعيدون ترتيب أوراقهم ومواقعهم ، خصوصاً وأن الإنقاذ اعتمدت على "جمهور اللحظة" ، على غرار تجمعات المساجد ، وبشكل أوسع وذلك باستعراض القوة العددية، فجمهور الإنقاذ كان ينتقل من ولاية إلى أخرى ، وهو نفس الجمهور في كل الولايات ، وهذا جعل الهلع والفرع يدب في الأحزاب الأخرى بما في ذلك الإسلامية، وهذا يعنى أنها من البداية حاولت أن تكون لها جمهورها الخاص ، وبالفعل نجحت في تشكيل قاعدة جماهيرية عريضة أخذت شكل الامتداد الأفقي ، إذ استطاعت أن تجعل الطبقات الغنية تلتحم مع الطبقات الفقيرة، وتساهم في رفع الغبن عنها من خلال تلك الأسواق التي أقامتها في عدة ولايات بعد ذلك .

إن الفعل السابق من الإنقاذ - كما يبدو ظاهرياً - فعل سياسي ، لكن في حقيقته توجيه للسياسة والمجتمع ، لأن ما قامت به من تجميع وتوظيف للمحرومين والمسحوقين والحيارى والسكرارى وكل المنبوذين في المجتمع ، جعل لأول مرة في الوطن العربى - في حدود علمى - حزباً سياسياً دينياً أصولياً يتبنى المطالب الاجتماعية ، وباختصار فإن الإنقاذ سحبت البساط

من تحت أرجل اليسار ، ومن تحت أرجل النظام القائم .

والسلوك السابق في حد ذاته لقي قبولا جماهيريا ، لكن صُحِبَ بهجمة واسعة على الصحافة ؛ ذلك لأن الإنقاذ ، اعتقدت أن الهجوم خير وسيلة فبدأت حربها ضد جبهة التحرير ، ثم الإعلام ، وأنهتها بالرئيس ، وقد انعكس هذا بشكل مباشر على الإدارات والجامعات والمؤسسات الصناعية .

وقد حاولت المؤسسات في الجزائر أن تحمي نفسها من الضغط السياسي للأحزاب من ذلك ما قامت به الجامعات ، حين منعت النشاط السياسي للأحزاب فيها ، بما في ذلك إلقاء محاضرات أو إقامة ندوات من رؤساء الأحزاب . لكن الأحزاب جميعها حاولت دخول الجامعات بطرق مختلفة وملتوية ، ومنها بالطبع الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وزاد هذا في خوف الناس ، فقد كنت أستاذاً محاضراً في جامعة العلوم والتكنولوجيا بوهران ، وجاء الدكتور عباسي لإلقاء محاضرة ، ورفض المجلس العلمي للجامعة ، فطرح عباسي الأمر من زاوية أخرى هي : أنه أستاذ جامعي ، وبالتالي لا ينطبق عليه القانون ، ومع ذلك رفضت الجامعة ، وفي النهاية جمع الطلبة خارج أسوار الجامعة وألقى محاضراته ، وقد نجم عن ذلك صدام بين الطلبة .

ومنذ ذلك الوقت بدأت أحس بنوع من الخوف لم أكن على الأقل في البداية أعرف أنه بداية الفرع ، ذلك لأن إجبار الناس على القبول بموقفك وبرنامجك الحزبي نوع من الديكتاتورية أيضاً ، وقد أثرت الإنقاذ بمواقفها وأفعالها بشكل سلبي على أتباعها من الشباب ، حتى أننا استدعينا مرة

الملحق الثقافي الإيراني لالقاء محاضرة في الجامعة ، فقام الطلبة المنتمون للإنتقاذ بمنعه من إلقاء المحاضرة ، وكان لهم ما يريدون ، وإلا كانت الجامعة ستؤول إلى حال من القوضى لا مثيل لها . ولتصوّر القارئ تهجم الطلبة على أساتذتهم ، -وقد كنت واحداً منهم - فقط لأن حزبهم لا يقبل بأى عرض لفكر أو نشاط للشيعه في الجامعة .

بعدها بثلاثة شهور فقط ، قمت بزيارة إلى إيران - أثناء حرب الخليج الثانية - وحين عدت ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها نشرت تحقيقاً عن "زواج المتعة في إيران" فثارت الإنتقاذ ، وشتمتني على منابر المساجد ، واعتبرتني خارجاً عن الدين ، ليس هذا فقط بل إن الشيخ الشاب "على بلحاج" كتب بعد ذلك سلسلة مقالات ضد الشيعة ، ومع ذلك تحمست إيران لنتائج الانتخابات التي فازت فيها الإنتقاذ ، المهم أن الهجوم على ، لم يكن يخصني وحدي ، ولكن أيضاً مجلتي ، بل إنه شامل لمختلف وسائل الإعلام وبالذات التلفزيون ، الذي اعتبر في نظر قيادات وجماهير الإنتقاذ الطرف الآخر المعادي ، والمؤيد للسلطة ، مع أن التلفزيون بالذات ، هو الذي ساعد على نجاحها حين كثف تغطيته ومتابعته لكل نشاطاتها وتجمعاتها .

من ناحية أخرى كانت هناك استهانة بينه بالإنتقاذ ، وعدم إدراك كامل لقدرتها من طرف القوى السياسية ، وإن كانت جبهة التحرير الوطنى تدعى أنها كانت على علم بقوة الإنتقاذ ، وذلك حسب ما كشف لي مؤخراً عبد العزيز بلخادم -رئيس البرلمان السابق- ، ولو كان هذا القول صحيحاً لما

تمكنت الإنقاذ من الفوز ، صحيح أن هناك اعتقاداً في قوتها ، وقد تمت معرفته بعد نتائج الانتخابات المحلية يونيو ١٩٩٠ ، لكن الهزيمة التي وقعت بعد ذلك في انتخابات ديسمبر ١٩٩١ تكشف عن الجهل الواضح لدى قيادة جبهة التحرير الوطني.

وقد كان بعض رؤساء تحرير صحف القطاع العام الموالين لرئيس حكومة الإصلاحات - مولود حمروش - يؤكدون لنا في كل جلساتهم : "أن الإنقاذ لن تتمكن من الفوز بالأغلبية، وعلى الجميع ألا يخافها" ، ويبدو أنهم كانوا جادين في أقوالهم تلك، غير أن الواقع أثبت خطأ معلوماتهم وحساباتهم ، فالأجهزة لم تكن في المستوى ، إذ جعلت رئيس الجمهورية "الشاذلي بن جديد" نفسه يقع في خطأ قاتل ، أبعدته عن الرئاسة ، ودفع بإعادة ترتيب البيت السياسي الجزائري من الداخل ، لكن بترتيب مكلف وبالدماء .

وبالرغم من أن حكومة "مولود حمروش" ، قد حاولت أن تقلل من خطورة الموقف وتقيّد الإنقاذ - بعد فوزها في الانتخابات المحلية - بعدم اعتماد الميزانيات لها ، إلا أن الإنقاذ أيضاً كانت لها أخطاء سياسية قاتلة ، من ذلك : رفض رؤساء البلديات استقبال رئيس الحكومة لأن هذا الأخير يمثل جبهة التحرير الوطني . وقد حضرت هذا بنفسه في إحدى البلديات بالجنوب الجزائري .

وقد كان هذا بمثابة استعراض للقوة على مستوى السلطة والإدارة ، وانعكس ذلك على الشارع ، تجلّى في محاكمة بعض الشباب على جرائم

ارتكبوها مثل جلد شاب في مدينة "باتنه" ، في حين أن متابعة المواطنين على جرائمهم ومحاكمتهم من اختصاص القضاء وكنا نتساءل - آنذاك - عن هدف الإنقاذ من هذه الأعمال ، وكان علينا أن نتظر سنوات لنعرف الإجابة، التي تجلت في كونها تسعى لتحل كبديل عن السلطة القائمة قبل إجراء الانتخابات ، وبعد فوزها صارت ترى نفسها السلطة الشرعية الوحيدة، وهي الآن تقتل من أجل الاعتراف بها ، طبعاً من خلال الجماعات المسلحة .

والواقع أن الخوف لم يكن عاماً في أوساط المثقفين والصحفيين ؛ أولاً : لانتماءاتهم المختلفة ، وثانياً : لكون الدولة ما تزال قوية ، وثالثاً : لأن العنف لفظي وعلى مستوى الخطاب السياسي ، ولم يصل بعد إلى سلوك إجرامي ، لكنه تحول فجأة إلى خوف عام ، بعد الإضراب السياسي للإنقاذ في يونيو ١٩٩١ ، حين طالبت بإقالة الرئيس "الشاذلي بن جديد".

فقد عايشنا هذا الحدث في العاصمة - الجزائر - وقمت بالتغطية الصحفية من موقع الأحداث ، وأنا شاهد عيان ، فالصورة في مجملها ما تزال ماثلة أمامي :

'مسيرات منظمة ، تمنع حركة السيارات ، تقطع بين الحين والآخر ومجموعة منظمة تلبس زياً أفغانياً، طويلة اللحى ، عاصبة الرؤوس ، أصواتها تنطلق من الحناجر مدوية ، استعراض عسكري ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى - وعلى طول الشوارع وقفت النسوة في شرفات المنازل منهن الخائفات ، وكثيرات منهن مزغردات لا يلوين على شيء ، وفي شارع كبير، ووسط تجمع لأنصار الإنقاذ جاءت امرأة سافرة الرأس ، فستانها تحت

الركبة بقليل ، دخلت وسط الجمهور ، فقال أحدهم : دعوها تمر فقد جاءت لتفسد مسيرتنا ، لكن الأنظار صوبت نحوها ، إلا أنها لم تكن مبالية، كانت المسيرة منظمة إلى أبعد حد ، ورجال الشرطة يرقبونها ، هادئة حيناً وتتحول أحياناً أخرى إلى هادرة كموج البحر ، شعور بالآنا الجمعى ، إلا أنه مخيف للآخر ، المتبصر ، ويقاؤها عدة أيام زاد من الإحساس بالخوف لدى كل المواطنين . . . فالتليفزيون يؤكد على أنها فشلت ، والإنقاذ تؤكد أنها نجحت

كانت أيام صعبة ومقلقة لسكان العاصمة ، فالأنفاج من البشر تتعاضم كل يوم، وأكوام الزبالة تراكمت حتى فقدت الجزائر البيضاء مظهرها الجمالى ، والناس أجبروا على غلق متاجرهم ، والذين رفضوا كُسرت أبواب محلاتهم، وغياب تام للسلطة ، . . . لقد كان اعتقاد الرئيس "الشاذلى" أن الإنقاذ لن تستطيع مواصلة الإضراب ، لكنها لم تكن مبالية بالتائج ، فقد كان عباسى مدنى يضع الأطفال الصغار في مقدمة المسيرات ؛ حتى لا تواجههم قوات الأمن ، وفي الليلة التي تقرر فيها تدخل قوات الأمن، اتصل رئيس الحكومة مولود حمروش هاتفياً بعباسى مدنى، وطلب منه سحب مناضليه من الأماكن العامة، لكنه رفض ، فأبلغه بأن تدخل قوات الأمن لإنهاء الإضراب سيكون في الصباح الباكر ، وعند الثالثة صباحاً توجه عباسى مدنى إلى المتجمهرين وطالبهم بعدم الانسحاب، وأن يدافعوا عن أنفسهم أمام قوات الأمن ، مما نتج عنه سقوط العديد من الضحايا .

وقد شاهدت شريط "فيديو" لعملية التدخل ، وكيف كان مناضلو الإنقاذ يواجهون أسلحة قوات الأمن ، وخصوصاً القنابل المسيلة للدموع ، فأدركت لحظتها أن هناك محاولة تغيير بالقوة لنظام الحكم مهما كانت التكلفة ، والذي حال دون ذلك هو إدراك الإنقاذ أنها ما تزال في موقف أضعف ، وأنها لن تستطيع المواجهة ، وعليها أن تلجأ إلى حرب العصابات إذ لم تتمكن من الوصول إلى الحكم من خلال الانتخابات ، وقد لا يكون هذا شعور كل مناضليها وقادتها، وإنما هو قناعة الذين يقومون بالعمليات الآن ، حتى أن بعض القريبين من الإنقاذ يذهبون إلى التأكيد : على أن إلغاء نتائج الانتخابات كان لصالح الجناح المتطرف داخل جبهة الإنقاذ ، الذي اختار العمل العسكري بعد ذلك .

هكذا إذن بدأت تتطور مسألة الفرع لدى المواطنين بعد أن فقد البعض أبناءهم ضحية مطامع سياسية - مشروعة أو غير مشروعة - وبالطبع كنت من الذين مسّهم الفرع، لكنه لم يتم بشكل مباشر لأن معظم الصحافيين كانوا يعتبرون أنفسهم مجرد ملاحظين ، لكن ما كشفت عنه بعض المصادر المطلعة بعد ذلك بسنوات ، تجعلنا نكتشف عدم وعينا بما كان يحدث في تلك الفترة ، ربما لدخول بلادنا مرحلة جديدة ، وربما لكوننا لا نملك خلفيات الماضي عن العداء بين التيارات والقيادات السياسية ، فقد أبلغني "أحمد مراني" - أحد الأعضاء المؤسسين للجبهة الإسلامية للإنقاذ - أن عباسي مدني رد على الشرطة حين طالبت جماهير الإنقاذ بالسير على الرصيف :

"دهوهم حتى يسيل الدم ويسقط ضحايا ، ويسمع كل العالم أن هناك

دماء سالت في الجزائر .

والواقع أن "أحمد مراني" ، الذي استقال من الإنقاذ وحلّ من خطورة عباسي مدني ، ثم أصبح مستشاراً لدى رئيس الحكومة . فوزيراً للشئون الدينية ، وأخيراً اختير عضواً في مجلس الأمة ، كان يعي ما يقول ، لكن معظم الناس لم تصدقه لحظتها ، بما في ذلك الصحفيين ، لأننا اعتبرناه - آنذاك - مؤيداً للسلطة ، ناهيك عن أن التيار الإسلامي لا يعتبره شخصية لها ماضٍ قديم داخل الحركة ، المهم أن تصريحاته تلك كانت أشارت إلى بداية من الفزع العام ، وبعدها بمدة وجيزة ، تأكدت صحة أفكاره، وعم الفزع قبل إجراء الانتخابات البرلمانية بأيام قليلة .

كان المفروض أن تفزع منذ ١٩٨٤ ، أي منذ ظهور "مصطفى بويعلى" ، لكن اعتقادنا بعداء الرجل للسلطة وليس للشعب حال دون وعينا بخطورة العنف ، وفي مرحلة لاحقة ، حين أسس شيوخ الإنقاذ حزبهم، ولدت فكرته عند زيارتهم لعائلة "مصطفى بويعلى" ، كان علينا أن ننظر للأمر من زاوية تأسيس العمل السياسي على القوة ، ومع ذلك فإتنا لم نهتم بل إن معظمنا دافع على قانون الأحزاب الذي سمح باعتماد أحزاب إسلامية .

وبالرغم من أن جميع المؤشرات والمعطيات والأفعال كانت تؤكد على بداية ظهور الفزع في حياتنا جميعاً ، سواء عند اصطناع مشكلات مع الصحافة ، أو عند معاقبة المواطنين ، أو حتى عند قيادة المسيرات لإسقاط الرئيس ، وهي جميعها عمليات تصعيد مقصودة بررت ما وقع بعد ذلك ، قلت رغم هذا إلا أن الاختلاف في وجهات النظر والاهتمام بالشكل

الظاهرى للممارسة الديمقراطية، والغفلة، جميعها عوامل حالت دون ادراكنا لخطورة الوضع وما ستسفر عنه الأيام ، وكان لابد من هزة كبيرة تطيح بقناعاتنا وتجعلنا نعيد اكتشاف أنفسنا ، وعلاقاتنا ، ومستقبلنا السياسي، وكانت هذه الهزة هي : حادثة ثكنة "قمار" التي وقعت في ٨ نوفمبر ١٩٩١ ، أى قبل الانتخابات بمدة قليلة ، لأن هذه الأخيرة أجريت في ٢٦ ديسمبر ١٩٩٢ .

لست أدري لماذا تأثرت بهذه العملية كثيراً دون غيرها . سواء تلك التي سبقتها ، أو تلك التي جاءت بعدها ؟ طبعاً باستثناء العمليات ذات الصلة المباشرة بى وبأقاربى وكذلك المجازر الكثيرة التي تتابعت لاحقاً ، وفي أحيان كثيرة أرى أن الإجابة تكمن في أنها أول عملية عسكرية أثناء الممارسة الديمقراطية ، فقد كانت سابقة عن إجراء الانتخابات ، وربما أن الذين كانوا وراءها سعوا من خلالها إلى منع إجراء الانتخابات، إضافة إلى ذلك فإن هذه العملية . وقعت في نفس الولاية التي أسكنها ، وهي ولاية الوادى - جنوب شرقي الجزائر - منطقة صحراوية مسالمة ، وربما لأسباب أخرى كثيرة أجهلها لكن أحس بها ، يتداخل فيها الإحساس بأهمية الأمان بسلامة الوطن ، وسعادة الحاضر - في ذلك الوقت - بالخوف من المستقبل .

على العموم فقد سمعت خبر الاعتداء وأنا في مدينة "وجدة" بالأراضي المغربية ، وقد أثر الخبر على مسمع أسرة مغربية كانت تستضيفنى رفقة الحاج "لمنور" بعد لقاء لنا مع محمد بوضياف قبل عودته رئيساً للدولة في

ففي ذلك البيت المغربي أدركت معنى الشعور العربي العام ، فقد كانت مضيقتنا متأثرة جداً ، ولم تبلغنا بالخبر إلا بعد أن أحسنت ضيافتنا ، وأنهينا عشاءنا ، كانت حزينتنا مثلنا ، محتارة مثلنا ، وخائفة مثلنا ، بالرغم من أنها كانت بعيدة عن تلك الأجواء ، غير أنها حاولت التخفيف عنا ، وطالبتنا بالمبيت فرفضنا وقررنا السفر .

خير الحادث هو أول تعامل لي مع الفرع على المستوى الشخصي ، ويعود ذلك لفرع مرافقي ، ذلك الرجل الذي اشتعل رأسه شيباً ، إذ حسم الأمر من البداية ، واعتبره بداية العمل المسلح في الجزائر ، ووضع احتمالات ثلاث ، أولها : يحتمل أن تكون هذه الجماعة الإرهابية تابعة لدولة خارجية ، وثانيها : أنها واحدة من عدة مجموعات إرهابية موزعة على التراب الوطني ، وثالثها : وهو الأخطر - في نظره - أنها مجموعة عسكرية انفصلت عن الأحزاب الإسلامية لتبدأ مسلسل واسع لأعمال العنف في الجزائر .

كان صديقي - وهو يحدثني - يعيش حالاً من الفرع ، ومع كثرة التحليل وسرد تجربته التاريخية تأثرت كثيراً ، وما كنت أعرف أن تلك الساعات من الفرع ستكون بداية لدخولي عالم القلق ، وأنها ستتراكم مع الزمن وستجعلني خلال ست سنوات يتقدم بي العمر مثل كل جيلي أربعين سنة ، وكنت أحسب أنه مجرد كابوس مزعج ، لكنه لن يطول ، لكنه لم يكن كما تمنيت ، فقد سالت الدماء نتيجة للفوضى التي حلت باسم

الديمقراطية ، وما نزال نعيشها، لهذا أقول وبناء على أولى لحظات الفرع :
"إننا كثيراً ما نتصور أنفسنا خارج المشهد المساوي ، ورغم حب الوطن،
فإنه لن يؤثر فينا بنفس درجة شموليته لنا ، لكتنا مع الوقت لمجد أنفسنا جزءاً
أساسياً منه وفيه ، لحظتها لا تبقى لنا إلا الكتابة وهذه أيضاً حرم منها
أصدقاء كثيرون، كانوا يدافعون عن قضايا الوطن والتاريخ والحرية ..
أصدقاء شكلوا باغتيالهم أو غيابهم فراغاً حقيقياً لي - تطاردني صوره
وأفكارهم ، وأنا أرى في نفس الوقت للمجرمين يعيشون على دمائهم ، ولا
ندري على من سيكون الدور منا ؟"

إن ما عايشته منذ البداية أيام فرع طويلة ، لا لأن الاغتيال شامل فقط
ولكن لكونه - الآن - يأتي على طول أيام مُرة حزينة ، يرافقنا ، وحين
نرحل خارج أوطاننا يظل يطاردنا ، ولهذا كلما سمعت باغتيال شخص زاد
الفرع عندي ، وتغير طعم الحياة لديّ ، وربما حتى لون الدماء في عروقي ..
إنها الدماء الجزائرية التي تسيل لكن تظل الأرض عطشانة ، وتسقى بها
أنفساً مريضة ، تصورت أنها بإحلال الرعب تحكم المجتمع، فقدت إنسانيتها
وتحاول جاهلة أن تُفقد الدين قيمته ... وقد استطاعت في وقت سابق أن
تزيّف وعي الناس ، وكنت من الذين حاولوا مواجهة هذا الزيف ، حين
انتقل الفرع عندي إلى مرحلة أخرى واغتال الإرهابيون أحد أقاربي .. وهو
ما ستراه في الفصل القادم .

الفصل الثاني

الفرع من القصبية إلى عنابة

- * اغتيال "ابن عمي" : المفاجأة المرة .
- * ترويع شائعات اغتيال آلاف من الشرطة تحول إلى حقيقة .
- * مسئولون جزائريون في السر يعلنون عداءهم للإنقاذ وفي العلن يبعثون لها ببرقيات التأييد .
- * الاعتقاد بأن السلطة وراء الاغتيالات وسّع في مساحة الكراهية
- * الاعتقالات أظهرت تصفية الحسابات بين التيارات .
- * باغتيال الرئيس بدأ الخوف على الوطن .

تحدثت في الفصل الأول عن بداية الفزع منذ أن ظهرت الإنقاذ ، وبدأت في حربها مع الإعلام ، وسردت بعض لحظات الفزع الأولى ، سواء عند ظهور جزائريين في لباس المجاهدين الأفغان ، أو عند دعوة الأنصار إلى مقاومة رجال الأمن ، وانهينا إلى التأثير المباشر لعملية "قمار" على حياة الكاتب ، وقد كان وقوع العملية أثناء وجوده في المغرب "أ

وفي هذا الفصل نواصل لحظات الفزع ، التي تطورت من عموميتها مع الصحافة والسلطة إلى حرب جديدة ضد رجال الأمن والشرطة ، بعد نتائج الانتخابات وترويج الشائعات على أن هذه حرب مقدسة . لأنها تعيد للشعب حقه في الاختيار وقد انطلقت هذه الحيلة الكبرى عن كثيرين منا ، وكنت أحد ضحاياها ، وفي أول العمليات فقدت عزيزا على ، كان شرطياً ، وليس له علاقة بما يحدث على الإطلاق ، وكانت تلك هي بداية دخول الفزع لكل بيت جزائري .

عدت مساء ذلك اليوم إلى البيت - كمادتي - في عين فبكرون (تقع على بعد ٥٠ كم من عاصمة الشرق الجزائري قسنطينة) منهار القوى بعد يوم شاق ، ذلك لأنني كنت أتابع بنفسى طباعة العدد الجديد من صحيفة

"العهد" التي كنت رئيس تحريرها ، وهي في بداياتها ، خصوصا وأنها نشرت في ذلك العدد الحلقة الثانية من حوارى مع بوضياف ، وقد تأخرت الطباعة في ذلك اليوم .

حاولت أن أتجاوز لحظات الإرهاق ، وأنا أحس بسرقة عمري من خلال العمل الصحفي ، وبعد حديث قصير مع زوجتي وابتتي "الشيما و ميسون" أسرعرت إلى تشغيل جهاز التليفزيون لسماع أخبار "نشرة الثامنة" التي كانت قد بدأت منذ دقائق ، وفوجئت على الشاشة بعمي "صالح" - الذي يسكن العاصمة يصلي في جنازة مهيبة مع عدد من المسئولين ، ولم يخطر على بالي أنه يصلي على جثمان ابنه "محمد" ورفاقه .

حاولت الاتصال هاتفيا بالعاصمة لمعرفة ما حدث ، فلم أوفق واتصلت بأقاربي في مدينة "تقوت" بالجنوب الجزائري وعلمت أن ابن عمي "محمد" قد قتل في كمين وضعه الارهابيون في القصبة ، ولطالما عرفت تلك البقعة داخل العاصمة العديد من العمليات في عقود زمنية ماضية لكنها كانت في أغلبها بين الجزائريين وأعدائهم ، لكن ما حدث في ذلك اليوم ، كان بشعا بالنسبة لي ، لا لكونه أخذ مني قريبا - الذي كنت أراهن على نشاطه - فحسب ولكن لكون القتل بدأ ضد رجال الشرطة والأمن ، أي أن تلك العملية وماتبعها ، كان هدفها إحلال الفوضى ، وإنهاء حالة الأمان والاستقرار .

والواقع أنه قبل هذه العملية ومنذ تعليق الانتخابات ثم إلغائها ، بدأت تروج في الساحة شائعات مفادها أن عدد القتلى سيكون بالآلاف من رجال

الشرطة والدرك والجيش . ولم يكن معظمنا يصدق ما يقال ، معتبرين أن ذلك مجرد تهديد للسلطات حتى لا تقوم بحل الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وبعضنا حاول منذ البداية أن يحدد مبررات لأعمال العنف المحتملة الحدوث ما دامت السلطات قد ألغت الانتخابات ، لكن أكثریتنا كانت مع إعادة حق الإنقاذ في الحكم شريطة ألا يكون ذلك بالقتل والدماء .

لقد كانت لحظات اختيار صعبة بين وصول الإنقاذ إلى الحكم وبين إبعادها ، خصوصاً بعد تحرك قوى سياسية مختلفة معظمها يسارية وهو ما يعرف بلجنة إنقاذ الجزائر ، وقد فشل العقل الجزائري الحاكم والمعارض في إيجاد حل للمأزق الذي تسبب في إزهاق أرواح عشرات الآلاف بعد ذلك .

ومع أنني ترشحت في الانتخابات التشريعية ، منافساً للإنقاذ وغيرها من الأحزاب الأخرى ، إلا أنني كنت مؤيداً لنجاحها مادمت قد عاشرت بنفسى - في واحات الجنوب الجزائري وفي الأرياف والقرى - التأيد التلقائي والعفوي للجبهة الإسلامية رغم الشروط التي وضعت ، وكنت أرى - مثل كثيرين غيري - أن الديمقراطية في بلادنا يجب أن تدعم بمواقف صارمة ، ومعترفة بالتناج ، وقد سارت كثير من الصحف على هذا المنطق، وبعد ثلاث سنوات اكتشفت أن الإنقاذ في وادي . وهي في وادي آخر .

وعلى خلاف التجارب العربية الأخرى ، فقد اختار الجزائريون الديمقراطية - رفضاً أو قبولا - على حساب الدولة وكانت النتيجة

ما نعيشه الآن ، وإذا كان المثقفون يقومون بذلك وهم واعون لدورهم ، فإن العامة كانت تؤيد الإنقاذ ، التي تمتعت بمكانة خاصة لدى الشعب ، بعد خطابها السياسي العنيف ، وأيضاً بعد معارضتها الحقيقية لنظام الحكم ، مطالبة برحيل رئيس الجمهورية .

بجانب هذا فقد كان هناك فريق من رجال السلطة - الذين عايشوا كل عهود الحكم ، وأكلوا على كل الموائد - يحاولون اللحاق بالركب قبل أن يفوتهم ، ولهذا أسرع بعضهم لتغيير خطابه وإعلان تأييده للتناج ، وكانوا في جلسات سرية معنا يعلنون عداوتهم الظاهر وفي الخفاء يسارعون إلى إرسال برقية تأييد للجهة الإسلامية للإنقاذ .

المدهش حقاً ، أن الذين اعلنوا تأييدها ، وضرورة احترام اختيار الشعب ، سارعوا إلى تأييد بوضياف بعد عودته ، ودخلوا جماعات وفرادي في "التجمع الوطني" الذي أنشأه قبل اغتياله بأيام ثم التحقوا بحزب "التجمع الوطني الديمقراطي" ، وآخرون منهم صاروا أعضاء في المجلس الشعبي الوطني وفي مجلس الأمة .

إذن فمن البداية لم يكن السياسيون على موقف ثابت واحد ، وذلك عكس الكتاب والصحفيين الذين ذهب بعضهم إلى تأييد التناج - أو رفض إلغائها وتوقيف المسار الديمقراطي ، وهكذا بدأت الأسر الجزائرية تحدد موقفها ، وبعضها دخل في حرب مباشرة مع السلطة ، وتم الترويج للأسلوب الذي أعلنته الإنقاذ ، وهو : قتل آلاف الشرطة ورجال الأمن وكانت أول عملية ضد الشرطة - كما ذكرت آنفاً - تلك التي ذهب

ضحيتها ابن عمي ورفاقه .

بعد سنة من التحاقه بالشرطة ، وبعد تدريب متواصل ، وهو باكورة
أبيه ، تمكن "محمد" من نيل ثقة مرؤوسيه ، وكسب محبة أصدقائه ، وقد
كان منذ طفولته على هذا النحو ، ولحظة اغتياله لم يتجاوز عمره ٢١ سنة ،
كان في عمر الورد ، وكذلك رفاقه ، ولم يكن يعتقد إطلاقاً في صبيحة
ذلك اليوم أنه ذاهب ولن يعود أبداً . لقد خرج بهمة ونشاط كعادته ،
ولكن الذين قرروا الانتقام من السلطة - من خلال الشرطة - لم يكونوا
بكل تأكيد يعرفون أصوله الأسرية ، وتوجهاته أو توجهات عائلته .

كان أبوه رجلاً عاملاً في شركة للقطاع العام ، وملتزماً بدينه ، حاجاً
بيت الله الحرام ، وكذلك أمه ، والأكثر من هذا أن والده ينتمي إلى الجبهة
الإسلامية للإنقاذ وينشط على مستوى قاعدى من خلالها ، ولصالحها ،
وكان مؤيداً للمشروع الإسلامى ، ولطالما تناقشنا واختلفنا ، ولكن كل منا
كان يحترم الآخر - مع ميل عائلتنا بنسب مختلفة - للتيار الدينى ، وربما
كان اختلافنا بسبب المستوى الثقافى ، وأيضاً بسبب القناعات والمواقف
الخاصة بكل منا ، ومع هذه الخلافات إلا أن محمداً - رحمه الله - كان هو
نقطة الجمع بيننا ، ربما لأننى أحد أقاربه من جهة "أبيه" الذى أحبه بصدق
وتمنى أن يراه رجلاً ناجحاً ، وقد سعدت كثيراً بالتحاقه بالشرطة ، لقناعتي
بنشاطه من جهة ، ولضرورة وجود أبناء العائلة في عدة مواقع داخل
مؤسسات الدولة من جهة ثانية .

لقد كان اغتيال "محمد" ضربة قاضية بالنسبة لى ، ومع أننى أثناء

وصولي في اليوم الثاني للعزاء - رفقة زوجتي الكاتبة "شهر زاد العربي" -
أظهرت صبرا خصوصاً بعد أن وجدت عمي وزوجته زهراء أكثر أفراد
عائلتنا صبرا ، لكن هذا كان ظاهرياً لأن أمه لاتفارقها صورته إلى الآن ،
وذلك شعور طبيعي بالنسبة لأم فقدت ابنها البكر ، كباقي الأمهات
الجزائريات اللاتي فقدن أبنائهن على طول سنوات الأزمة المستمرة في
الجزائر .

كان حزني عليه أيضاً لكونه الشاهد الوحيد من أقاربي - وكان آنذاك
عمره حوالي عشرة سنوات - على ميلاد حبي الحقيقي - وهو أكثر أقاربي
قرباً من زوجتي لأنها تعرفت عليه وتعرف عليها أيام الشعور بالسعادة في
عمر الجزائر . وكان حين يكلمه أحد عني بخصوص الزواج - يقول له :
"لقد اختار عمي زوجته ، وستعرفونها مع الأيام" وهو في ذلك السن كان
مكمن سرّي ، ربما لإحساسي بقربه مني ، وربما لشعور داخلي لم أدركه هو
أنه : لن يعمر طويلاً .

لقد جاء اغتياله في ظل سياق عام لأعمال العنف ، حيث بدأت جموع
الإنقاذ وقياداتها تقوم بالمظاهرات كل يوم "جمعه" في المساجد ، ومن
المدّش أن السماء في تلك الأيام من شهرى يناير وفبراير كانت حزينة بما
يحدث إذ كانت ناعمها سحب داكنة السواد ، وربما يكون ذلك تفسيرى لما
يحدث أو مجرد شعور داخلي - وإن كان هذا الاحساس قد انتاب كثيرين
غيري ، المهم أن الاغتيالات بدأت برد السلطة على عنف الإنقاذ ، وهذه
الأخيرة اعتبرت حرمانها من فوزها جريمة يعاقب عليها بالقتل ، وبالطبع

قتل الذين يحولون في نظرها بين الطاغوت - الاسم الذي أطلقته الإنقاذ وجمهورها على كل المسؤولين وقيادات الجيش - وبينهم ، ولذلك قامت باغتيال الشرطة ورجال الأمن وكل العاملين في الأجهزة التي تتولى الدفاع عن الوطن.

من ناحية أخرى فقد تزامنت عمليات الاغتيال بالترويع إلى أن بعضا من رجال الامن متحالفون مع الجماعات ، وأن هناك اختراقا للأجهزة الأمنية ، بل والأكثر من هذا أن ما يحدث من قتل للشرطة هو مجرد تصفية حسابات بين قياداتها ، صحيح أن هذا حدث ، وكشف عن انتماء بعض رجال الشرطة في العاصمة وغيرها للجماعات المسلحة ، ولكن هذا جاء بعد ذلك بثلاث سنوات على الأقل ، ولم يكن في بداية أعمال العنف .

يلاحظ أن تلك الشائعات ، وجدت اذانا صاغية لدى كثير من الجزائريين ، وقد انتابني حزن شديد وأنا أسمع أم محمد - ابن عمي المغتال - تؤكد على أن الذين اغتالوا ابنها من الحكومة ، ليس هذا فقط ، بل إنه بعد سنوات من اغتياله لاتزال على قناعة بأن الذين اغتالوه من السلطة وهذه مشكلة كبيرة يواجهها الجزائريون ، فهم قد تعودوا تكذيب السلطات في كل ماتقول حتى لو كانت صادقة ، وقد نتج عن هذا غياب تام للثقة بين الحكام والمحكومين ، والمحاولات التي تبذل الآن لن تحقق أية نتائج ما لم تصحب بتغييرات فعلية في حياة المواطنين .

وعلى صعيد الشائعات دائما فإن ظهور الجماعات الإسلامية المسلحة المتأخر مقارنة مع ظهور الجيش الإسلامي للإنقاذ جعل كثيرا من الجزائريين

يؤكدون على أن هذ الجماعة صنيعة النظام ، أوجدها من أجل محاربة جيش الإنقاذ ، وإذا سلمنا بهذه الأقوال ، فإن هناك سؤالاً يفرض نفسه هو: مادام الأمر على النحو السابق ، فلماذا لم تتمكن السلطة من توقيف العنف بعد إجراء الانتخابات وفشل المعارضة ؟ الإجابة عند البعض نجدها على النحو التالي : " إن الجماعة بعدما صارت قوية ، تمردت على السلطة نفسها، ويصعب الآن التحكم فيها " .

مثل هذه الأقوال وغيرها نجدها ضمن خطاب عام يهدف إلى تحضير المجتمع نفسياً للقبول بالعنف بعد ذلك ، وقد ساهمت كل القوى السياسية والمثقفين في المطالبة بعدم تدخل الجيش، لأن تدخله في تلك المعركة - في نظر كثيرين منا - يعد حرباً مباشرة مع الشعب ، ولا يوجد جيش في العالم انتصر في حربه ضد شعبه، صحيح أنه يتمكن من قمعه لحين من الوقت ، لكن التغيير يظل قائماً لا محالة ، ومع ذلك كله يتهم الجيش بأنه من وراء أعمال العنف ، وقد اضطر للدخول في مواجهة فعلية ضد الجماعات المسلحة في نهاية ١٩٩٤ ، وذلك بعد إعلان وزير الدفاع الجنرال اليامين زروال : " أن الجيش يعطى مهلة أربعة أشهر للسياسيين لحل الأزمة ، وإلا سيتدخل بشكل مباشر " وأنتهت المدة ، ووجد الجيش نفسه في مواجهة فعلية بعد فشل السياسيين .

إن الفرع الذي داهمني باغتيال قريبى ، لاشك أنه انتاب غيرى سواء أولئك الذين كانوا مناضلين في الإنقاذ ، أو الذين كان أقاربهم من الشرطة، غير أن الفرع لم يتوقف عند حد التأثير على بعض الأفراد والعائلات وإنما

أخذ طابعا شموليا ، بعد قرار الرئيس بوضياف المتمثل في إقامة المعتقلات ، حيث سجن خمسة آلاف مواطن لم يكونوا جميعهم من جماهير وأنصار الإنقاذ ، وبدأت في تلك الاعتقالات تصفية حسابات مع أغلبية أصحاب التوجه العربي - الإسلامى ، وقد يكون هذا دون علم بوضياف لكن تلك المعتقلات كانت هي سبب كراهيته من طرف الشعب

ويغض النظر عن مدى قبول أو رفض تلك المعتقلات من الأحزاب والسياسيين والشعب ، إلا أنها وسعت الهوة بين السلطة والشعب ، ولكثرة القلق دخلنا في حرب إعلامية ، من ذلك الموقف الصريح والعلنى لجريدة "العهد" من خلال مقال كتبه مديرها العام "محمد سعدى" تحت عنوان : "لا يا بوضياف" ولم يكن هذا المقال خاصا بالمعتقلات فحسب ، وإنما جاء ردا على أفعال بوضياف جميعها ، علما بأن هذه الجريدة نفسها كانت من المرشحين بعودته ، وقد مُنع العدد من الصدور ، لكن بتدخل قائد الناحية العسكرية "بقسنطينة" سمح بطباعته ، في وقت منعت صحف أخرى من الصدور .

وهذا القلق الذي انتابنا على مستوى جريدة "العهد" كان رد فعل طبيعي لعلاقتي الشخصية بكثير من الذين اعتقلوا . لقد كانوا أساتذة جامعات وصحفيين ومديرين وإداريين ، وغيرهم من الذين يؤثرون بشكل مباشر في الحياة العامة ، وقد صُحِبَ اعتقالهم بردود أفعال على مستوى كل القطاعات ، لكن لم يدخل المواطنون في مواجهة مع السلطة لسببين ، أولهما : لكون المواجهة بدأت قبل ذلك بالفعل وأن السلطات كانت تقوم

برد فعل ، وثانيهما : تداخل الأفعال والمواقف ، وإدراك البعض أن قوى سياسية بعينها تريد جر التيارين الوطنى والإسلامى إلى حرب مع السلطة .

ولم يكن في مقدور الصحفيين القبول بهذا الوضع ، وهكذا بدأت بعض الأعلام تنتقد علانية سياسة بوضياف والفريق الذي يعمل معه ، من ذلك ما كتبه الصحفي القدير "سعد بوعقبة" في صحيفة "الشروق العربى" منتقداً بشكل غير مباشر الحكومة ، وموضحاً الأفكار التي يحاول بعض المسؤولين تمريرها ، وهى بالطبع معادية للتوجه الوطنى ، وكانت صحيفة "الشروق" آنذاك أكثر الصحف توزيعاً ، وسبق لى أن التقت بصاحبها ومديرها "علي فضيل" وعرض عليّ الالتحاق بمؤسسته كرئيس تحرير ووعدته بالتفكير .

لم تمر إلا أياماً قليلة عن هذا اللقاء ، حتى فوجئت ذات مساء في نشرة أخبار التلفزيون بخبر اعتقال مدير جريدة الشروق ومستشارها سعد بوعقبة ، فاتصلت "برشيد فضيل" سكرتير التحرير آنذاك وأخو المدير العام ، فالتمس مني الالتحاق بالمؤسسة قبل أن تغلق السلطات الجريدة ، وكان له ذلك ، وأثناء وجودي في العاصمة بينت لي الحملة - التي قام بها المحامون لصالح الجريدة والمكالمات الهاتفية والرسائل التي وصلتنا من القراء - مدى التفاف الناس حول هذا العنوان ، ومدى خوفهم على الديمقراطية الناشئة في بلادنا .

بدلت مساعٍ كبيرة للتأثير من خلال رأى العام في قرار السلطة ، وبالطبع التأثير بشكل غير مباشر على القضاء في تحويل القضية من مسألة

خاصة باعتقال صحفيين إلى قضية رأى عام ، وذلك من خلال الاتصال ببعض المسئولين العسكريين ، وقد اكتشفت تأييد بعض الضباط لسياسة الجريدة وخطها العام ، وذهب بعضهم إلى التصريح - أنه حتى في حالة الخطأ - من طرف الصحفيين فإن الحكم الأول الصادر ضدها بعقوبة السجن ثلاثة شهور نافذة ظالماً .

وخلال شهر بذلت السلطات محاولات غير مباشرة لمنع صدور الجريدة أو غلق مقرها ، وفي النهاية صدر حكم ببراءة الصحفيين في الاستئناف ، ولكن قبل صدور الحكم وجدت نفسي أبذل مساعٍ جديدة من أجل تدخل بعض الضباط ، وقد حدد لي موعداً مع إحدى الشخصيات الهامة المؤثرة - رفض ذكر اسمه - لمناقشة كيفية تدعيم الزميلين المسجونين ، وما إن وصلت إلى باب المحكمة العسكرية في "البليدة" ، حتى وجدت حراس الأمن يمنعونني من الدخول، وإلغاء الموعد ، وحين سألت عن السبب : أبدوا دهشتهم لعدم معرفتي بالخبر ، "خبر اغتيال بوضياف" .

كان اغتيال بوضياف في الساعة الحادية عشر وخمسة وثلاثين دقيقة صباحاً ، وفي ذلك الوقت كنت متجهاً من العاصمة إلى البليدة (تبعد عن العاصمة ٤٠ كم) بل إنني خرجت من مقر الجريدة على الساعة العاشرة لوجود التزامات أخرى ، وقد كنت على علم بزيارته صبيحة ذلك اليوم إلى مدينة عنابه ، وأدركت بعد سماع الخبر كم أن العمل الصحفي شاق ويتطلب متابعة مستمرة قد لا تتوفر لنا دائماً .. إنها ساعات عمل متواصلة قاتلة ، والخطأ فيها مكلف مثل العمليات الجراحية تماماً .

وعلى طول الطرق كنت أفكر في الوضع الذي ستؤول إليه البلاد ، وقد
بدت الصورة آنذاك قائمة ، وفي تلك اللحظة لم يكن يهمنى معرفة القاتل ،
ولمما الذي شغلني اتساع مساحة العنف ، لقد بدأت العمليات منذ عودة
بوضياف ، وتركزت أغليبتها ضد الشرطة ، وفقدت فيها - كما ذكرت
سابقا - ابن عمي ، وما هي عمليات الاغتيال تتواصل لتنتهي حياة الرئيس
نفسه .

لقد تحولت حالة الفرع من الخوف على النفس والأقارب الى الخوف
على الوطن ، وإذا كان من السهل حماية النفس بتغيير المكان ، فإن حماية
الوطن ليست بنفس السهولة ، لأنه من الصعب تغييره ، صحيح أن الفرع
على حياة الإنسان صعب ومخيف ، لكنه - في نظري - لا يساوي الفرع
من أجل الوطن ، لأن الإنسان بلا وطن ، بلا وجود ، وبلا تاريخ ينتمى إليه ..
هذه حالة أخرى انتابتنى ، ومع ذلك فقد حاولت أن أنساها مع الأيام ، لكن
ما حدث بعد ذلك جعلنى أجمع بين الفرع على النفس وعلى الوطن ،
وتلك مأساة نجاة منها من نجاة إلى حين ، وهلك من هلك على غير بينة ،
لكن الفرع ما يزال يطاردنا .

الفصل الثالث

صحفيون في طواير الاغتيال

- * "عبد السلام بلعيد" يعتبر الكتابات الإسلامية إمداداً ثقافياً للأصولية .
- * بسبب كتابي "الجهاد والثورة" صرت متابعاً أمنياً
- * اغتيال "طاهر جاووت" أرجعه البعض لترجمته كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية"
- * الصحفيون بين سندان الجماعات ومطرقة الحكومة .
- * إرهابي - شاب - يحملني زرع بذور التطرف .
- * الجماعات الإرهابية تضع الصحفيين في سلة واحدة .

تناول الفصل السابق الحرب التي شنها الإسلاميون ضد رجال الشرطة والأمن، وترويع الشائعات من أجل استرجاع الحق المنهوب، وقد بدأناه بالحديث عن أول كمين للشرطة "بحي القصبة" وأنهيناه بلحظة اغتيال الرئيس بوضياف، حيث انتقل الفرع من مجرد قضية خاصة بالأفراد والجماعات إلى قضية عامة تهدد بإنهيار بناء الدولة .

وفي هذا الفصل نواصل سرد تفاصيل لحظات الفرع مركزين على زملاء المهنة الذي اغتالتهم قوى الإجرام، فقط لأنهم يحملون أقلاماً وأغليبتهم لم تكن منتمة لأي فريق، وقليل من الضحايا ساعد هذا الفريق على حساب ذاك، لكن مهما كانت مواقف الصحفيين، فإنهم ما كانوا ليغتالوا لولا أن تلك الجماعات ضد العلم والنور وضد كشف الحقائق وهنا تكمن خطورة الصحفيين .

الاغتيالات بدأت قبل إجراء الانتخابات بشهرين، بشكل مفاجئ، وتوسعت مساحتها بعد توقيف المسار الديمقراطي، حين أصبح العنف مشتركاً بين السلطة وأحزاب المعارضة، ولم يكن قتل الأفراد من هنا وهناك هو القضية الأساسية للقائمين بتلك الأعمال، وإنما الهدف كان إيجاد حالاً

من الرعب الجماعي، وتحضير المجتمع كله إلى حرب شاملة، وهي ما كنا نطلق عليه آنذاك حرب الدوائر، أي أن اغتيال أي رجل من الأمن يصيب الأجهزة الأمنية بخسارة، وليس شرطاً أن يكون المقتال موافقاً على سلوك الدولة، بدليل أن بعض رجال الشرطة اغتيل وهو يؤدي صلاته في المسجد، وبالمقابل استعمال القوة مع أي كان من الأصولين بغض النظر عن مشاركته في العنف من عدمها .

ولم تكن نحن الصحفيين معنيون بالاغتيال على الأقل -في نظرنا- آنذاك، ولا أدري لماذا لم تنبه إلى أن اغتيال الخبراء في الاستراتيجية مثل جيلالي البابس والأطباء ونخبة مختارة من المثقفين سيجعلنا في مواجهة الرصاص مادماً نحسب ضمن جماعة المثقفين، الذي لم يساعدوا طبقاتهم الإجتماعية على النهوض والخروج من التخلف ؟

كانت الأحداث تمر سريعة . وباغتيال بوضياف، وتعيين حكومة "عبد السلام بلعيد"، وتعيين "علي كافي" رئيساً للمجلس الأعلى للدولة، تغير الخطاب السياسي للسلطة، وصرنا نحاسب عن أي مقال لا يؤكد على هبة الدولة وإعادة قوتها.

ولا شك أن "عبد السلام بلعيد"، رجلاً وطنياً مخلصاً، وجاداً في أفعاله واتخذ مواقف إيجابية تحسب له، ولكنه أيضاً أخطأ حين حاول أن يحكم سلوكيات المواطنين بقرارات فوقية، حتى أنه اعتبر الكتابات المختلفة التي يشتق منها الإسلام بمثابة إمداد ثقافي للإسلاميين، وأتذكر أنه قبل أن يبدأ الرصاص بطاردنا، وكنت مسافراً إلى القاهرة، طلب مني رجال الشرطة

الإفصاح عن وجهتي بعد سفري إلى القاهرة، فقلت : "إنني ذاهب لأية دولة إسلامية أخرى" ، وحاولوا معرفتها مني، خوفاً من أكون مسافراً إلى السودان أو إيران، فقلت للضابط : أعتقد أن القانون يسمح لي بالذهاب حيث أشاء ما دام رئيس الحكومة "يعرض برنامجاً على فرنسا" .. فما كان من رجل الأمن إلا أن قام وسلم عليّ معتبراً .

واضح أن هذه المواقف وغيرها قد خلقت نوعاً من الإحراج لدى رجال الشرطة ، لكنهم كانوا مجبرين عليها، خصوصاً بعد التأكيد الحكومي على المواجهة مهما كانت التكلفة، وهكذا وجد الصحفيون أنفسهم بين مطرقة الجماعات وسندان الحكومة.

وقد شكلت مسألة الإمداد الثقافي للتيار الإسلامي مشكلة أساسية لأجهزة الأمن، وقد تعرضت على المستوى الشخصي والعائلي إلى نوع من المضايقات ، فبالنسبة لي صرت متابعاً بعد صدور كتابي المشترك مع شهر زاد العربي الذي عنوانه "الجهاد والثورة" الذي صدر عن الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة في ١٩٩٢ ولولا أن بعض رجال الأمن كانوا من التيار المعرّب لواجهت مشكلات عديدة بسببه مع أنه مجرد كتاب تناول بالبحث الفرق بين الجهاد والثورة، ولا صلة له مطلقاً بإنكار الإسلاميين في الجزائر .

أما على المستوى العائلي، فقد حجزت زوجتي -مع أنها كاتبة وصحفية- ساعات في مطار "قسنطينة" بسبب حملها لكتابين معها قصد المطالعة، الأول بعنوان الإرهاب في الشرق الأوسط، والثاني بعنوان

"جنرالات الإسلام"، وهو الكتاب الذي أزعج رجال الشرطة، خصوصاً وأنه يحمل صور "عباسي مدني" و"عمر عبد الرحمن" و"راشد الغنوشي" و"حسن الترابي".... الخ، وبما أنها مُحجبة، وذات حجة قوية في الدفاع عن مواقفها، فقد جعلهم يبقون معها وقتاً طويلاً في التحقيق، ولولا معرفة أخيها لبعضهم ؛ لأنهم ليلتها في زنزانة .

إذن سعت السلطة بقيادة "علي كافي" ورئيس الحكومة "عبد السلام بلعيد" إلى استرجاع هيبة الدولة بالقوة، محاولة لتجفيف منابع الإرهاب -حسب زعمها- لكن هذه المحاولة ظلم فيها أناس كثيرون لا علاقة لهم بالإرهاب، ولا حتى بالتيارات الإسلامية، وقد دخل عبد السلام بلعيد في مواجهة حقيقية مع الصحافة الفرنكفونية التي حاول الضغط عليها، لكنه استعمل موقفاً أشد تجاه الصحافة العربية، ففي عهده حظرت عشر صحف عربية محسوبة على التيار الوطني .

موقف الحكومة هذا بدأ يمسنا على المستوى الشخصي والعائلي -كما ذكرت- وهو الذي جعلنا في النهاية هدفاً للجماعات، فإما أن تسكتنا الحكومات بقراراتها الفوقية الجائرة، وأما أن يسكتنا الرصاص، وإذا كانت الحكومات المتعاقبة قد قضت على حرية الصحافة، وخربت بيوت العاملين في الصحافة، فإن الجماعات قضت على ما تبقى حين بدأت بإطلاق النار .

وقد كانت جماعات العنف مختلفة، وأحياناً متناقضة غير أنها تُجمع على قتل الصحفيين وتشريد عائلاتهم، وأصبحت الصحافة مهنة المتاعب والمصاعب ومهنة القتل اليومي، ولم تكن هناك حماية على الإطلاق، لأنه

لا يمكن حماية الأفراد والمؤسسات ... الخ.

أتذكر أننا ونحن نودع أصدقاءنا وزملاءنا كنا نختفي وراء مهن أخرى مثل التعليم، لكن للإتصاف : أننا لم نكن نخاف قوات الأمن حين تقتحم علينا المقرات مثلنا خوفاً من الجماعات، ذلك لأن قوات الأمن لا تقتلنا بحكم مهنتنا، ثم أن الأوضاع لم تكن قد ساءت على النحو الذي وصلت به بعد ذلك، أما الجماعات فبمجرد أن تقرأ اسمك في البطاقة أنك صحفي فأنها تنفذ فيك القتل، وهناك من قتلوا بالخطأ فقط لأنهم يعملون في مؤسسات الصحافة أو يتعاملون معها .

رصاصة واحدة تكفي لقتل أي صحفي، لأن هذا الأخير لا يحمل سلاحاً معه وليست له عداوة مع أي كان، إذن فقتله غير مكلف بالنسبة للجماعات من جهة، وأنه أهم من قتل أية شخصية أخرى حتى لو كان عميداً في الجيش، وقد تزامن ذلك مع قتل الشخصيات ذات الثقة لدى المواطنين، وذلك لتوجيه الرأي العام للإيمان بثقافة العنف .

مع الأيام أصبحت ثقافة العنف هي السائدة، وأصبحت الجماعات الإرهابية تحقق مكاسب ميدانية . حتى أنها تمكنت في سنة ١٩٩٤ من السيطرة على مناطق معينة وسمتها "الأراضي المحررة"، وامتدت سلطتها لبعض القرى حيث صارت تحكم بين القرويين في قضايا الأحوال الشخصية، بل إن تأثيرها وصل خارج الجزائر حين كتبت الصحافة العالمية عن احتمال سقوط العاصمة في مدة وجيزة على أيدي الجماعات .

الملاحظ أن الوسط الإعلامي كان يقدم العديد من المبررات، ويعطي تفسيرات وتأويلات مختلفة للزملاء الذين يسقطون كل يوم، فحين بدأ مسلسل الرعب والموت، في ٢٦ مايو ١٩٩٣، ضد الصحفيين، وكانت الضحية الأولى الصحفي والروائي المشهور "الطاهر جاووت" وأُعطيَ تفسير للاغتيال في الأيام الأولى . هو أن رئاسته لتحرير مجلة القطيعة (رويتير)، كان يهدف من ورائها إلى قطع أية صلات مع الماضي القريب، ومع الإسلام، وأرجع ذلك لكون أصوله بربرية.

كان هذا مجرد تفسير لما حدث ونقل غير آمن وتشويه للحقائق، ذلك لأن جاووت اغتيل بنفس الأسلوب الذي تم به اغتيال زملائه، فقد أطلقت عليه النار أمام باب العمارة التي يسكنها، لحظة توجهه لسيارته المتوقفة في الحظيرة المقابلة . وما أن جلس في سيارته وأدار مفتاح المحرك حتى أطلقت عليه النار من شاب، فر هارباً بعدها، ولم تكن هناك أية معلومات تبين إن كان جاووت قد أُنذر قبل ذلك .

نزل علينا خبر اغتياله كالصاعقة، وبالتأكيد كان الخبر أكثر وقعا على أسماع الصحفيين الفرنكفونيين، لكن بعد شهر دار في الساحة الإعلامية حديث حول اغتياله مفاده أنه كان يترجم رواية "آيات شيطانية"، وعلم الإسلاميون بذلك فاغتالوه، وهذا لم يحدث على الإطلاق، لأن قاتليه لم يكن يهمهم ما يقوم به بقدر ما يهمهم ترويع الخوف في أوساط الصحفيين، وبالرغم من أن اغتيال "جاووت" كغيره من الزملاء لم نعرف خلفيته، إلا أنه منذ مدة دار حديث داخل الصحافة الفرنكفونية متهماً السلطة باغتياله؛

وهو الأمر الذي لا يزال مطروحا حول العديد من عمليات العنف .

على العموم فإن اغتيال أول صحفي، نظر إليه في الأوساط الإعلامية من زاوية أن الخطر سيجتاح الصحافة الفرنكفونية فقط، ولن ي طال الصحافة المعربة لكن الأيام كذبت هذه الرؤية، ووضحت الأهداف من اغتيال الصحفيين، وكان أهمها : هو المساحة التي تحمقها الجماعات الإرهابية باغتيالها للصحافيين.

المهم أنه رغم البيانات المتضاربة، لم نكن -نحن الصحفيين- على قناعة بأن كثيرا منا سيواجهون نفس المصير، بل إن الاعتقاد كان أنها مجرد عمليات فردية، تأتي ضمن موجة العنف العامة، وبالتالي فليس هناك خطر خاص بالصحفيين، وإنما هو خطر على كل المواطنين لكن تكرار سيناريو قتل الصحفيين بنفس الأسلوب في البداية، وأقصد الترصد، ثم تطوير الأسلوب الذي أتبع مع ثاني ضحية، وهو "عبد الرحمن شركيت" نائب رئيس تحرير يومية "المجاهد" الذي قتل على مقربة من قصر الحكومة، وسبق أن اجتمعت معه مرة واحدة في بداية ١٩٩٢ بعد فوز الإنقاذ .. كان رجلا هادئا، دائم التأمل -رحمه الله- .

إذن فالفرع الآن أخذ في التزايد، ولم يعد عاما كما كان في مرحلته الثانية، وإنما عاد من جديد إلى أسلوب مرحلته الأولى أي قتل الشرطة، لكن هذه المرة اغتيال الصحفيين، بأساليب متعددة، سواء بمتابعة خط سيرهم كما حدث في البداية مع صحفي التليفزيون رابح زناتي"، والطبيب بوتريف من الإذاعة، ثم مع إحدى صحفيات الشروق، فهؤلاء وغيرهم

تركوا منازلهم تحت التهديد وحين عادوا للزيارة وجدوا من ينتظرهم .

واضح أن الجماعات الإسلامية المسلحة، في ترصدها للصحفيين، وإتباع ذلك بالاغتيال، عملت على إنشاء خلايا للمتابعة والترصد والتجسس، أثبت معظم الاغتيالات التي طالت الصحفيين جدواها، والمدهش أن هذه الشبكات تتابع الصحفيين في كل مكان يتواجدون فيه أو يتعودون التردد عليه، بل إن بعض عناصر الجماعات تخلق عن مفاهيمه الدينية ولجأ إلى أساليب للتخفي، واستعان بأساليب "الموضة" لقتل بعض الزملاء .

إن ما حدث مع الصحفي "سعيد مقبل" مدير يومية لوماتان، يبين ذلك ، فقد تم رصد حركته بدقة، حيث كان يتردد على مطعم قريب من مقر جريدته، إذ تسلل عنصران مسلحان بدا من زيهما أنهما طالبان جامعيان من الطبقة الفنية، سدل أحدهما شعر رأسه في ضفيرة للوراء، وتقدم الاثنان منه مبديان إعجابيهما بكتاباته، وعندما اطمأن إليهما صافحه أحدهما مصافحة حارة ومسكه بكلتا يديه، ليتولى الآخر إطلاق النار على "سعيد مقبل" بكل اطمئنان .

وما كادت نمر عشرين شهراً عن اغتيال "الطاهر جاووت" حتى بلغ عدد القتلى ٢٦ صحفياً من مختلف القطاعات ناهيك عن المخطوفين، والذين تعرضوا إلى محاولة الاغتيال ونجوا بأعجوبة، ثم ارتفع العدد بعد ذلك، وقد عايشنا عن قرب سقوط كثير من الذين ربطتني بهم الصداقة وأحياناً السفر والغربة من أجل العلم والإعلام، مثل "لحسن سعد الله" مدير مجلة

الإرشاد - لسان حال جمعية الإصلاح والإرشاد .

رغم خوفي الشديد وحزني على الأصدقاء لم أكن أحس بأن هناك من يرصدني، أو يتربص بي، مع أن سكني كان في حي المرادية حيث مقر الرئاسة ووزارة الخارجية، وهي منطقة عرفت الكثير من العمليات، غير أنني فوجئت في أحد الأيام بشاب يطلب مقابلي، ولم أكن على سابق علم به، وحين أوجس منه فريق الأمن الخاص بالصحيفة خيفة، طلبت منهم أن يسمحوا له بلقائي.

حين جلس الشاب بدا هادئاً، وعندما سألته عن سبب الزيارة قال : لقد كنت أطلع ما تكتبه منذ أن كنت صحفياً بمجلة "الوحدة"، ومازلت أحتفظ بمقالاتك، ثم أخرج لي من جيبه أوراقاً كانت معه، ومنها حواراً أجرته مع "سمير الهضيبي"، وكان حول أسباب التطرف لدى الشباب .

بعد أن وضع أوراق المقالات والحوارات أمامي، سألتني : "كيف تدعون من خلال الكتابة إلى عدم مسئولية الشباب عن التطرف، وحين نقاوم السلطة تضعونا في صف المجرمين"

وأدركت على الفور أنه لم يقرأ الحوار بوعي كامل، فوضحت له ما جاء فيه ، وكان واضحاً أن مستواه الثقافي ضعيف جداً، ولا أدري إن كان قد اقتنع بما شرحته أم لا ؟ لكنه لم يزرنني مرة أخرى إلى غاية سفري من الجزائر .

والسؤال السابق الذي طرحه زائري، هو نفس السؤال الذي طرحته

الجماعات المسلحة لقيادات إسلامية داخل الجزائر، كانت هذه القيادات قد نمت في تلك الجماعات روح العداء للدولة، وحين قامت الجماعات بالاعتداءات اعتبرتها متطرفة ومخطئة.

المهم أن الأمور تداخلت ولم يعد في الإمكان التمييز بين المواقف، غير أنه مع ذلك لم يكن خوفنا في "مجلة الشروق" من التيار الإسلامي، لقناعتنا أن المعركة مع التيارات الأخرى أشد، لكن بعد مدة إكتشفت أنني قد وضعت ضمن قائمة الذين ينوون تصفيتهم، وكذلك زوجتي، وتلك مأساة سأوضحها لاحقاً.

كانت صحيفة "الشروق العربي" تقود حرباً ضد التيار الفرنكفوني من جهة وضد مواقف السلطة من جهة ثانية، وبما أنني كنت رئيس تحريرها، فقد وضعت في خانة المعارضين، وكنا رغم شعورنا بأن الجماعات المسلحة لن تتعرض لأي منا، إلا أننا لم نملك معطيات، وربما أن هذا الشعور هو الذي جعل بعض الصحفيين يفتال في نهاية ١٩٩٥، كما أن الشعور السابق كان مبعثه الانتشار الواسع للجريدة، حيث بلغ توزيعها ٣٢٠ ألف نسخة، وبالمقابل كنا نخاف أن نقتل من التيار الفرنكفوني، حتى أن الزميل "سعد بوعقبة" كان يقول دائماً : "إذا قتلت فإن قاتلي سيكون من التيار الفرانكوفيلي".

من ناحية أخرى فإن الرسائل التي كانت تصلنا من أنصار الإنقاذ والجماعات، تحثنا على مواصلة السير على نفس الطريق، غير أنها تلومنا على عدم نشر رسائل المعتقلين الذين اختطفوا من طرف قوات الأمن، وما

كان في مقدورنا النظر في ذلك، نظراً للقانون الذي يحكم العمل الإعلامي آنذاك، غير أننا كنا نتمنى المساهمة في نشر رسائل القراء على الرأي العام، والملاحظ أن رسائل الشكوى من الظلم قد بلغت حداً بعيداً، كما وصلت لبعض زملائنا في الجريدة وفي مواقع إعلامية أخرى رسائل تهديد، لكن لم نكن نوليها إهتمام يذكر، مع أن معظم التهديدات نُفِّذت بالفعل بعد ذلك .

و حين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام الصعبة من تاريخنا الصحفي أجد أننا كنا ضحايا مثل كل أفراد الشعب الجزائري، فقط لأن شهرة الصحفي تضعه في المواجهة دائماً، فيكون أول الضحايا.

ولا أخفي القارئ أنني حاولت بعد كل عملية اغتيال أن أظهر الثبات والصبر، لكن بداخلي كنت أمتز كل يوم، ربما لأنني كنت أقطن في حي يطلق فيه الرصاص في فترات متقطعة من ليالي الشتاء الطويلة، كما حضرت أيضاً تبادل إطلاق الرصاص بين الجماصات وقوات الأمن، وشاهدت عدة مرات إهانة المواطنين من طرف بعض شباب قوات الأمن الذي التحق بالأجهزة متأخراً .

لقد تراكمت معاناتي مع الأيام، وانعكس ذلك بشكل مباشر على صحتي وأحسست - أحياناً - بفقدان حب الحياة، فأنا لست في حرب مع أي طرف ولا أحسب على أي فريق، وزملائي الذين أُغتيلوا لم يكونوا على عداوة مع أحد، ومع ذلك فقد تمت تصفيتهم، وكنت أمني نفسي بالمساعي التي يبذلها السياسيون لحل الأزمة، لكن الاغتيالات كانت تزيد

كلما بدأ الحوار بين السلطة والمعارضة، مما يعني أن الوصول إلى حل كان مرفوضاً من الجميع .

وباتساع دائرة العنف والاضطرابات لم تعد مقنعة تلك التبريرات التي نقدمها لأنفسنا خصوصاً حين اعتبرت الجماعات الصحففين ملة واحدة يجب مقاتلتها، ومع ذلك واصلت عملي دون اهتمام بحماية نفسي أو التخفي والاحتياط، لكن كنت أعود كل مساء محملاً بمزيد من الخوف والفرع، وظللت أخفي ذلك عن زوجتي، ولكن بعد أن هُددت هي أيضاً من طرف الجماعات، واقتحمت قوات الأمن بيتي، وأيضاً بعد لقائي ببعض قيادات الإنقاذ أدركت أن الفرع صار واقعاً.

إذن لا مفر من البحث عن ملاذ آمن، خصوصاً بعد أن زاد عدد الضحايا من الصحففين .

لكن كيف أترك الجزائر؟

إجابتي كانت العزم على الاستمرار مهما كانت التكلفة، وكان هذا مجرد كلام أقدمه لنفسي، لأن النفس حين تهتز أمام الصعاب يصعب إعادتها إلى حالة التوازن، فالفرع الآن يقتحم بيتي، ويهدد بناتي وزوجتي، والسياسيون لا يتوون التنازل ، فما العمل ؟

الفصل الرابع

رياح الخوف في ليالي العمر

- * النوم يهجر أجفاننا .. والقرآن يؤنسنا في ليالي الخوف .
- * اغتيال طفلة فلسطينية وأخرى جزائرية يزيد من خوفي على ابتي .
- * مطاردة الجماعات للصحفيين، جعلتهم يُغيرون بطاقاتهم المهنية .
- * رسائل التهديد عامة .. والاغتيالات يومية .
- * في "عمان" اكتشفت أنني مهدد بالقتل .
- * الجماعات تطالبني بالاعتدال أو الاعتزال .
- * جيش الإنقاذ يحذر أولاً ثم يقتل .. والجماعات تقتل بلا تحذير .

تناولت في الفصل السابق مزيداً من تفاصيل الفزع، وتحدثت عن كيفية انتقال العنف والإرهاب من رجال الشرطة والأمن إلى الصحفيين، واتساع دائرته، وركزت على زملاء المهنة، ووجود الصحفيين بين عنف السلطة وعنّف الجماعات، ناهيك عن الخلافات القائمة بين الصحافة المعربة والصحافة الفرنكفونية، والتي أعطت فرصة للجماعات لاقتناص الصحفيين، والشعور بالخطر بعد ذلك .

وفي هذا الفصل سأركز على المصاعب التي بدأت أواجهها على المستويين الأسري والمهني، وعن الأجواء المصاحبة لذلك، والتي ساعدت على زيادة فزعي. وكانت مرحلة صعبة جداً في حياتي، فالنوم بدأ يترك جفوني، وعيون بناتي متسائلة كل يوم، وهي ترى الجنائز على شاشات التلفزيون، وزوجتي في حيرة من أمرها، حيث أنها كانت تعيش أياماً حزينة من حياتنا، لاعتقادها أن الاغتيال يطاردني في كل مكان .

ما أصعب أن تأنيك رياح الخوف من كل مكان، وفي كل الأوقات، فقد كنت -وزملائي- نرى أن الموت يترص بنا في مكان العمل، في الشارع، في المطاعم والمقاهي، وحتى في البيوت، بل إنه يطاردنا في البيوت أكثر لأن

العودة كل مساء والإجتماع بالأسرة هي أكثر الفرص المواتية للإرهاب .

و حين اتسعت دائرة العنف لتشمل عدداً من زملاء المهنة، صار هاجس الخوف والقلق يخيم على أسر الصحفيين، وعلى الخصوص زوجاتهم وأمهاتهم، وقد كنت في العاصمة مع زوجتي فقط، ولاحظت خوفها عليّ، فحين تأخر عن موعد عودتي ولو لدقائق، أجدها واقفة على شرفة البيت تترقب عودتي، وبمجرد أن تراني، تحمد الله على عودتي سالماً .

والعودة كل مساء إلى البيوت لم تكن متاحة لكل زملائنا في ذلك الوقت، فمنهم من لا يلتقي بأسرته، وزوجته وأبنائه بالشهور، وأحياناً في لحظات اللقاء يتم قتله. لذلك تعلّم الصحفيون أساليب "الحيلة" والحذر. التي لم تكن أغلبها نافعة في ذلك الوقت مما دفع بالبعض إلى الهجرة آنذاك، خصوصاً بعد أن هددوا من طرف الجماعات، وقد كنت من الذين لا يعيرون اهتماماً لتلك التهديدات وربما يعود ذلك لكونها لم تصلني بعد، وربما للشائعات والأكاذيب التي كانت تروج، إذ وجد بعض الصحفيين في اغتيال زملائهم مبرراً للتغيب عن العمل .

والواقع أن أطرافاً أخرى خارج المجال الصحفي قد استفادت من اغتيال الصحفيين إنها مجموعات المصالح التي كانت ترى ضرورة تعميم العنف، وتوسيع مجاله، حتى يصبح الإرهاب ثقافة، وهناك بعض الجيران كانوا يوجهون التهديدات للصحفيين، حتى إذا ما تركوا مساكنهم استولوا عليها. والأمثلة كثيرة نورد واحداً منها : كان أحد أصدقائي الصحفيين

العاملين بالتليفزيون يزورنا كل يوم، طالبا منا مساعدته في الهجرة خارج البلاد، والسبب أن هناك تهديدات تصله كل يوم، فكنا نخفف من حالته، وحاولنا معه أن نعرف إذا كان التهديد من الجماعات الإرهابية، وبعد طول بحث اكتشفنا أن جاره هو الذي يبعث إليه برسائل التهديد من أجل الاستيلاء على مسكنه في غيابه .

ولم تكن حالة الخوف فردية، بل كانت عامة في الوسط الصحفي وغير الصحفي، وتزيد في الليل، حتى أننا صرنا نخشى من أية حركة قرب بيوتنا ليلاً، لدرجة أننا - من كثرة الخوف - لا نميز بين حفيف أوراق الأشجار عندما تتناثر، وتحركها رياح أو نسيمات البرد في ليال الشتاء، وبين وقع أقدام جماعات الإرهاب . لقد كانت ساعات الليل تمر طويلة، لذلك كنا نتمنى النهار أن يطول ويقصر الليل، وأحياناً نتمنى أن تكون كل أيامنا -ليلاً ونهاراً- نهاراً فقط، وكأننا في أماكن أخرى من الكون .

كنت أستمع على الخوف في ساعات الليل بقراءة القرآن، وحين أوى إلى فراشي أبدأ في الإستماع إلى القرآن ترتيلاً أو تجويداً، فتعود الطمأنينة إلى نفسي، وبعد مدة أذهب في سبات عميق، وأجد نفسي قد صحت مبكراً كلي نشاط وحيوية، فأنتظر السائق . بعد أن أكون قد سلمت على ابنتي "الشيما" وهي ذاهبة إلى المدرسة سيراً على الأقدام، وإن كنت في الأيام الأخيرة أرافقها في الذهاب، وتأتي وحدها في العودة .

وفي تلك الأيام الصعبة صار الخوف عاماً، حتى أنني أذكر عدم يقظتي في أحد الأيام مبكراً كالعادة، وكذلك زوجتي، مما أضاع على ابنتي فرصة

الذهاب إلى المدرسة، ولكن أراد الله بنا خيراً.

فعلى مقربة من مدرستها أطلق ارهاييون النار على أحد رجال الشرطة وركبوا سياراتهم، وحين طاردتهم الشرطة أسرعوا بسيارتهم داخل الأحياء السكنية، وأثناء ذلك وجدوا أمامهم الأطفال، فأصطدموا بهم، فقتلوا طفلتين (جزائرية وفلسطينية)، كانت الساعة آنذاك الثامنة إلا ربعا، وهو الوقت الذي غالبا ما تكون فيه ابنتي أمام باب المدرسة، لقد التقيت بوالد التلميذة الجزائرية المقتولة، صبيحة اليوم التالي، جاء ليشتري الخبز من الفرن المجاور لبيتي، كانت علامات الحزن الشديد بادية عليه، وعلى طول الوقت كان يدعو الله سبحانه أن يتقمم من أولئك الأشرار الذين تسببوا في موت ابنته الوحيدة.

عدت متأثراً بعد لقائي به، وكأب توقعت أن أواجه نفس المصير، ولكنني عدت ثانية إلى باحة الإيمان، محاولاً ألا أكون أسير الأحداث اليومية، لكن هل استطعت أن أتجاوز ذلك؟

أبدا لم يكن في مقدوري رغم محاولاتي المتكررة، ولم يكن خوفي على نفسي بقدر ما كان خوفي على زوجتي وبناتي، حيث كنت أخشى أن يصبين بأي مكروه في أي وقت.

كانت أصعب اللحظات بالنسبة لي هي عودتي من العمل، حتى إذا ما أبصرت زوجتي واقفة في شرفة البيت ومع الصغيرتين "الشيما" و"ميسون" أتوجه بالحمد والشكر لله، أما "رفيدة" فقد كانت آنذاك ماتزال رضيعة

ويكفي أن أرى طلعة زوجتي -شهرزاد العربي- من بعيد، حتى يبدأ الفرع في الرحيل، أما إذا وصلت ورأيت ابتسامتها والبتين فأؤكد أن الأمور بخير، وينتهي فزعي .

نفس الإحساس السابق، الذي كان يتابني لحظات ذهابي وعودتي، كان يتاب أصدقائي ومعارفي من الصحفيين، وقد كان زملاؤنا الموجودين في المكاتب الجهوية أسعد حظاً منا، وإن كان بعضهم قد أُغتيل بعد ذلك، حين عممت الجماعات جرائمها في كل مكان.

وكما ذكرت -سابقاً- فقد كنا نختفي وراء العديد من المهن الأخرى، خصوصاً إذا واجهنا الجماعات في الكمائن التي كانت تُقيمها بين الفينة والأخرى، لذلك كنا نبتهل لله سبحانه وتعالى أن لا يجعلها في طريقنا، خصوصاً وأن معظمنا لم يكن من سكان العاصمة - أصلاً - ومضطرب للسفر كل أسبوع، ثم كل شهر، وبعدها صار يسافر كل سنة وفي الأخير صار لا يزور أهله مطلقاً، لصعوبة المواصلات البرية .

والفرع يزيد، كلما سمعنا خبر وفاة أحد الزملاء، آنذاك بدت تقلص الهوة بين الصحفيين من مختلف التيارات، لكننا واصلنا تقديم التبريرات لاغتيال هذا الزميل أو ذاك، وكان واضحاً بعد اغتيال العديد من صحفيي التليفزيون بشكل متواصل وسريع ويومي، أن ظهور الصحفيين على الشاشة هو السبب، فبدأ بعضهم بالهجرة، ومن بقى رفض تقديم نشرة الأخبار أو البرامج.

وبعد مدة أصبح التسليفيون الجزائري يعانني من غياب الوجوه المعروفة جماهيرياً، وإعلامياً، غير أن هناك من واصل تقديم برنامجه، مثل الصديق "محمد دحو" الذي كان يعد ويقدم برنامجاً ثقافياً، وإن كان الوضع الأمني يورقه مثلنا مما دفعه للتوجه بالدعاء إلى الله في المسجد -بعد الصلاة- لحمايته، حسب ما كان يذكره لي عند زيارته لي في مقر الجريدة .

والواقع أن هناك عمليات اغتيال كبايت ضد الشرطة، فأصيب فيها الصحفيين، من ذلك العملية التي تعرض لها الصديق "مهدي ضربان"، وكان ضمن أسيرة تحرير "الشروق الثقافي"، وسبق له أن كان رئيس قسم "الشباب" في مجلة "الوحدة"، وأصابته في أصبع يده، ولم تكن موجهة إليه في الأساس، وإنما المقصود بها "ابن عمته" الشرطي.

إذ بعد خروجهما من المسجد بعد أداء صلاة العشاء، تعرضا لطلقات نارية، وجهت في الأساس لابن عمته، وأصيب هو بإحدى الرصاصات في أصبع يده اليمنى وواجه الزميل "مهدي ضربان" وضعا صعباً، واستمر عدة شهور متأثراً بالحادث، وتركت العملية أخدوداً في نفسه يصعب محوه مع الزمن، وهناك زملاء آخرين تأثروا بمقتل أصدقائهم أو أقاربهم، وهي الحالة التي صارت عامة حالياً في المجتمع الجزائري .

يلاحظ أنه رغم الاغتيالات المستمرة، والتي مسّت معظم قطاعات الإعلام، إلا أن هناك زملاء وأصدقاء يُشهد لهم بالمواجهة، حيث كان بعضهم يرى "أن الصحفي معرض للاغتيال في الوقت الراهن لكون البلاد تمر بظروف صعبة، وعليه أن يواجه الواقع ويستمر مهما كانت التكلفة، إذ

لا يمكن للطبيب مثلاً أن يتخلى عن مجتمعه في حالة إصابته بمرض الطاعون أو الكوليرا خوفاً من العدوى" .. لذلك لابد من مواصلة الطريق .. ومن بين الذين يطرحون هذه الفكرة الصديق "عبد العالي رزاقى" الشاعر والكاتب السياسي، وقد كان آنذاك رئيس تحرير "الشروق الثقافي"، وهو صحفي محترف، رؤيته الإعلامية أشمل وأوسع مقارنة بكثيرين منا وكذلك الصديق "حمراوى حبيب شوقي" الذي صار وزيراً للإعلام للمرة الثانية .

ورغم اختلاف في الرؤى ووجهات النظر مع "عبد العالي رزاقى" إلا أننا ارتبطنا بصداقة حميمة، بعد أن عُيِّن رئيس تحرير "الشروق الثقافي" بشهور، ولم أكن قبل ذلك على علاقة به، بل إنني كنت ضد تعيينه، ناهيك عن اختياره عند انعقاد مجلس الإدارة، وكنت أفضل أن يكون بدلاً منه "محمد دحو" أو "عباش يحيى" أو "الصغير سلام".

لقد اكتشفت بعد التعامل معه في مؤسسة واحدة - كرئيس تحرير - أنه رجل حرفي، محب لعمله. ومضحى، وجريء يواجه الواقع بكل مرارته، لا يعرف شيئاً اسمه الخوف، أذكر أننا كنا كل مساء، نخرج سوياً في سيارته، ونتجه إلى المناطق الساخنة حول العاصمة، لمعرفة الأحداث عن قرب، وهذا يعني أننا لم نكن ملتزمين بالقوانين التي وضعتها السلطة، وقد لا أكون مخطئاً إذا ما اعتبرت أننا الصحفيين الوحيدين آنذاك اللذين يملكان معلومات يومية جديدة، ومعظم الذي أرسلناه للصحف العربية التي كنا نرسلها يمثل السبق، فقط لأنه عمل ميداني لم يتوفر للصحف الجزائرية ولا العربية الأخرى .

ولم يكن نشاطنا المشترك قاصراً على مهامنا في الداخل، بل كنا نفضل العمل سوياً في الخارج أيضاً، من ذلك زيارة مشتركة قمنا بها إلى "عمان"، ثم "بغداد".

وفي تلك المهمة اكتشفت لأول مرة أنني مهدد بالقتل، إذ أنه قبل سفري بيوم وصلتني رسالة عادية، قرأتها بسرعة، ولم أهتم كثيراً بما جاء فيها، لأنني كنت مستعجلاً على ترتيب أوراقى قبل السفر، فقد وضعتها ضمن الملفات التي كنت أنوي الاطلاع عليها أثناء سفري، وعند وصولنا إلى الأردن، وأثناء نقاشي مع "رزاقى" حول الإرهاب في الجزائر، أهدافه، القائمين به، الممولين له، وحتى خطابه، تذكرت أنها وصلتني بالأمس رسالة فيها تحذير، ولم أعرها اهتماماً.

وسألني "رزاقى": أين هي؟ قلت: لا أدري أين وضعتها؟ لكن بعد فترة قليلة وجدتها ضمن أوراق الملف. سارع الصديق "عبد العالي رزاقى" بقراءتها، وما أن أنهاها، حتى تغيرت ملامح وجهه، وسارع إلى القول: "صديقي هذه رسالة تهديد من الجماعات" ! فعلقت: ولكنها لا تحمل ختم الجماعة ولا توقيع أحد.

فرد رزاقى: "معظم الزملاء استهانوا بهذا النوع من الرسائل، وكان مصيرهم القتل"، ومكثنا لساعات نفكر سوياً في المستقبل بعد عودتنا، وقد انتابني حزن شديد، وخوف لا مثيل له، فلأول مرة أحس بأنني معني بالاغتيالات بشكل شخصي ومباشر.

ويسدو أن هذا الفرع الشخصي المفاجئ قد ترك أثاره إلى الآن، لذلك أذكر بعض الكلمات التي جاءت في تلك الرسالة، والتي منها :

- سارت الكتيبة تنشر الأهوال في أثر الكتبة .

- اعتدل أو اعتزل .

- احفظ (خ) تحفظ .

وكلمات أخرى عديدة أشد لا أذكرها .

وآنذاك حاولنا فك رموز الرسالة، وبعد طول تفكير وضعنا احتمالاً أن إحدى الصحفيات تعمل مع الجماعات المسلحة، لأن عبارة "احفظ (خ) تحفظ"، تحمل معنيين، الأول : موجه لي شخصياً لكون اسمي "خالد" وبالتالي عليّ أن التزم بخطوط محددة منها : عدم مواجهة الجماعات، والمعنى الثاني : موجه أيضاً لي، ولكن يخص صحفية اسمها "خديجة" كانت قبل سفري قد طالبت بتحويلها من التحرير إلى الإدارة، فهم يريدون مني إبقائها في التحرير .

وعند عودتنا من السفر، حاولنا -بطريقة غير مباشرة- معرفة الحقيقة من الصحفية "خديجة" لكن اتضح لنا، أنها لا تعرف شيئاً، أو هكذا أفهمتنا، لكن لم نخبرها بالرسالة، غير أن تلك الصحفية نفسها أغتيلت نهاية ١٩٩٥، في محطة حافلات، إذ طعنها اثنان بسكين، وحين استمرت واقفة وصامدة، أطلقا عليها الرصاص، وبذلك انتهت حياتها المليئة بالأسرار.

والدهش : أنها مُحجبة، وتحمل ليسانس شريعة إسلامية، طموحاتها،

حسب معرفتي بها، لم تتجاوز الزواج والاستقرار، من أسرة فقيرة تقطن بعيداً عن العاصمة، كانت تساهم في مساعدة أخيها وأسرته، وبالرغم من أنها اغتيلت -رحمها الله- إلا أنها ستظل محل استفهام، لأن كثيراً من التساؤلات كانت تطرح بين الحين والآخر على طبيعة حركتها .

وفي سياق حديثي عن "خديجة دحماني" عليّ ألا أنسى أنني حين استقلت من رئاسة تحرير "الشروق العربي" نهاية ١٩٩٤، وقررت السفر إلى الخارج، كرمتي الجريدة في حفل حضره كل الصحفيين فقامت "خديجة" بإلقاء قصيدة تمدهني فيها، وتعدد خصالي، وتساءلت : لمن تركنا ؟ ذلك لأن علاقتي بكل الصحفيين، جيدة حتى أنها كانت تبكي، وتأثر كثير من الزملاء بما قالت، وأتذكر أن مدير الجريدة وصاحبها "علي فضيل"، قال لها : لقد أرجعت الحفل مائماً، فأرجوك أن تكفّي ... ربما كانت تبكي نفسها -اللاشعوريا- أكثر مما تبكيها .

أعود ثانية لمسألة التهديد بالرسائل، لقد كانت شائعة ومعروفة، وقد ألقت الشرطة القبض على عناصر من الجماعات ومعهم أسماء الذين يتوون قتلهم، وكثيراً منها كانت الأسماء نفسها التي تصلها التهديدات بالقتل.

غير أن هناك فرقا واضحاً بين الرسائل التي كانت تصل الزملاء من الجيش الإسلامي للإنقاذ، وتلك التي تبعث بها الجماعات المسلحة، فالأولى تطالب الشخص -المهدد- بالتراجع عن موقفه، أو التخلي عن عمله، واعتزاله -أما الثانية- أي رسائل الجماعات، فهي تأتي حادة وقاطعة ونافذة

بالحكم، وتربك الشخص وترهبه قبل اغتياله، والفرق طبعا واضح، فرسائل جيش الإنقاذ، تحاول تفادي الاغتيال ما استطاعت أما الجماعات فالقتل أحد أهدافها، وهذا طبيعي لأن الجماعة المسلحة تعتقد أن الصحفيين الذين طالبوا الجيش بالتدخل لحرمان الإسلاميين من فوزهم في الانتخابات البرلمانية أو الصحفيين الذين لا يهاجمون النظام، يتفد فيهم القتل، حتى أن أقوالا تنسب إلى "سيد أحمد مراد" الملقب بـ "جعفر الأفغاني"، أحد قادة الجماعة المسلحة في بداية انطلاقها، منها: "من يحاربنا بالقلم نحاربه بالسيف." وهناك من لم يحاربوهم بالقلم ومع ذلك قتلوا.

ومع أن كل الرسائل كانت مخيفة ومرفوضة، إلا أن بعض الصحفيين لم يكونوا يعتبرونها واردة من الإسلاميين، خصوصا أولئك الصحفيين المؤيدين للجهة الإسلامية للإنقاذ.

وبحجة الدفاع عن المواطنين من طرف قوات الأمن، والبحث عن الإرهابيين في كل مكان أصبحت في سبيل ١٩٩٣ - ١٩٩٤، بيوت الجزائريين، وبالذات في الأحياء الشعبية بالعاصمة، مناطق للتنافس والنزاع بين الجماعات المسلحة من جهة، وقوات الأمن من جهة ثانية، ومنها بيوت الصحفيين أيضاً، ولم يكن المواطنون يخافون زوَّار الليل من رجال الأمن قدر خوفهم من الجماعات المسلحة لأن هذه الأخيرة لا تعرف إلا القتل.

ولكون الجماعات المسلحة تأتي متسللة في جنح الظلام، فقد حاول المواطنون حماية أنفسهم بأبواب من حديد، ووضعوا شبايك من الحديد أيضاً، لكن هذه لم تكن مجدية أمام وابل الرصاص المتواصل، مما اضطر

كثير من المواطنين ومنهم الصحفيين إلى هجرة منازلهم، وبعضهم باعها بأبخس الأثمان ليعود إلى منطقته الأولى.

وكان تلك العمليات جميعها كان هدفها إفراغ العاصمة من سكانها ليحل بدلهم آخرون، وينطبق هذا أيضا على الفيلات والمساكن الفخمة التي أقيمت على مقربة من المناطق السياحية في العاصمة، والتي يمتلكها الأغنياء الجدد، فقد تمكنت الجماعات من الاستيلاء عليها حيناً، ومن تدميرها أحياناً أخرى.

بالمقابل، فقد عاشت عن قرب كثيراً من المسؤولين السابقين لا يزالون بالهجمات المحتملة من الجماعات عليهم، وعلى مساكنهم، وقد قال لي أحدهم وكان من أكبر الشخصيات المستولة في عهد الحزب الواحد: "إنني أجوب بسيارتي -المسيدس- كل المناطق في العاصمة وخارجها، ولا أخشى أحداً.." وكلامه هذا صحيح واقعياً، لأن كثيرين من سكان العاصمة شاهدوه، ناهيك على أنني زرت فيلته أكثر من مرة، فلم أجد حراساً، وإن الحمال السابقة تطرح العديد من التساؤلات، خصوصاً أن مسئولين آخرين لم يستطيعوا النجاة، بل نجدهم يُقتلون علانية وفي وضوح النهار، مع سيق الإصرار والترصد مثلما حصل مع "قاصدي مرباح" المسئول الأول -السابق- عن الأمن العسكري في الجزائر، وقد أشيع آنذاك أن خلفية قتله تعود: لمساهمته في محاولة توقيف نزيف الدم، وذلك من خلال مدّ الجسور بين الجماعات والجيش..."

ولقد تضاعف خوفنا جميعاً بعد اغتيال "قاصدي مرباح" لكونه رجل أمن بالدرجة الأولى، وتبيننا آنذاك أنه كلما دعت قوة سياسية إلى الحوار

كلما زاد عدد القتلى ، وبالذات من رجال الأمن والصحفيين، حيث لم تعد الجماعات تفرق بينهم، وبعد ذلك تطور الأمر إلى اغتيال كل طرف رافض لأعمال الجماعات.

ووسعت الجماعات في أعمال العنف، حيث قررت قتل نساء الطواغيت وأبنائهم، ونقصد بالطواغيت هنا معظم المسئولين، وبالدرجة الأولى ضباط الجيش، وبالتسبعية قتل الذين يدافعون عن سياسة الطواغيت، أي الصحفيين، وكذلك أزواجهم وأبنائهم، وإن كان هذا لم يطبق إلا بعد ثلاث سنوات، لكن المعروف أن زملاءنا قتلوا أمام أبنائهم وزوجاتهم حيث تؤخذ الزوجة والأبناء جانباً، ويتم قتل الصحفي أمامهم، وإذا استغاثت زوجته تقتل هي أيضاً .

ولترويح ثقافة الخوف، لم يعد أحد يدافع عن الآخر، بل بمجرد هجوم عناصر الجماعات على شرطي في الشارع أو صحفي أو أية ضحية أخرى يتخلى عنها الشعب، والكل يفر هارباً بمجرد إطلاق الرصاص.

وكنت أتصور حدوث هذا لي في أي وقت خصوصاً، وأنتي لست مسلحاً ككثير من رؤساء تحرير الصحف الأخرى، بل لم أكن مستعداً لحمل السلاح ، ذلك لأنني -رغم الخوف- مازلت أرى أنتي لست في عدا مع أحد، ولكن حادثة غيرت مجرى كل حياتي، واضطرتني للسفر، إنها حادثة اغتيال مفتش شرطة أمام بيتي، ثم اقتحام بيتي في نفس الليلة، وهو ما سنتابعه في الفصل القادم .

الفصل الخامس

الهجرة المفاجئة

- * القتل الذي أفزع زوجتي لأن اغتياله كان أمام بيتي .
- * زوار الثالثة صباحا والتهديد بالقتل .
- * قيادات الإنقاذ : زروال لا يملك أمره .
- * الجماعات المسلحة : لقد قررنا قتلك فاستحضري حجتك أمام الله .
- * نسألك الرحيل .. موافق ، لكن إلى أين ؟ !
- * الآمال الضائعة والمواجهة المكشوفة .

تناول الفصل السابق بعض حالات العنف التي واجهناها - كصحفيين، وانتهدت إلى أن الخوف كان حالة عامة، أبعدت كل مظاهر الفرحة، وجعلت البعض منا يحتاط كمحاولة منه للنجاة من القتل، لكن تلك المحاولات لم تكن ناجحة لأن الجماعات كانت تتربص بالصحفيين والشرطة، وكثير من المواطنين، كما ركز الفصل السابق على رسالة التهديد التي جاءتني، والتي حاولت أن أتجاوز تأثيرها النفسي، وانتهى إلى أن الأحداث التي جاءت بعد ذلك عمدت على زيادة الفزع واستمراريته.

أما الفصل الأخير من أيام الفزع في حياتي - كصحفي جزائري - قبل هجرتي خارج الجزائر، وليست الأخيرة فيما يتعلق بحياتي بشكل عام، مادامت هناك حوادث إرهاب تعاشها الجزائر، وطالت كل المواطنين، ففيه سأنتقل لأهم المواقف التي مارست عني ضغطا نفسيا، ودفعتني إلى السفر خارج البلاد.

لم أكن من الذين يؤيدون فكرة الهجرة رغم العروض التي كانت تنهال علينا من بعض الصحف خارج بلادنا، وقد كان كثير من زملائي يستغربون من رفضي لتلك العروض، وربما يعود رفضي لأسباب

موضوعية أهمها : أن الصحيفة التي كنت رئيس تحريرها كانت أكثر الصحف نجاحاً في الجزائر ، إضافة إلى ذلك فإن هناك روابط واسعة بيني وبين القراء ، وربما هناك سبب ثالث هو : سعادتي الحقيقية وأنا أعيش النجاحات التي نحققها كل يوم ، واعتقادي الراسخ في ذلك الوقت أن بلادنا في ظل التعددية في حاجة ماسة إلى استمراريتنا في العمل ، خصوصاً وأنا لم نكن على صلة بأي تيار سياسي ، وإنما كانت صلتنا المباشرة بالجزائر ، والجزائر فقط ، لكن هل دامت هذه القناعة ؟

ما حدث في أحد الأيام عند عودتي من العمل جعلني أعيد النظر في كل قناعاتي ومواقفي ، ففي ذلك اليوم جاءني صديقي "عبدالعالي رزاق" يطالبني كمعادته بالتوجه معه خارج العاصمة لمتابعة اشتباك بين قوات الأمن والجماعات ، وعلى غير عادتي رفضت ، لكنه أصر على ذهابي معه ، وحين وصلنا إلى المكان الذي قصدناه ، وجدنا العملية انتهت ، ولم يبق إلا أفراد قوات الأمن .

ولكن بين الذهاب والعودة استغرقنا حوالي الساعة ، بعدها مباشرة اتجهت إلى البيت رفقة "عبدالعالي" ، وحين وصلنا إلى شارع "روباس يار" بحي المرادية بالجزائر العاصمة ، وجدنا المنطقة مكتظة برجال الشرطة ، وسياراتهم تجوب الشارع بشكل متواصل ، لحظتها علق عبدالعالي على تلك الوضعية بقوله : أكيد أن هناك حادثة اغتيال ، وبالفعل كان الأمر كذلك .

لقد تمت عملية الاغتيال هذه الساعة الرابعة والنصف مساءً ، وهو

الوقت الذي تعودت فيه الرجوع إلى البيت ، وبما أن الحادث وقع أمام باب بيتي ، فقد اعتقدت زوجتي أن الطلقات النارية قد صويت إلى ، وحين وصلنا إلى المكان وجدت كل سكان الشارع يقفون محتارين من هول ما رأوا ، وقد سردت لي زوجتي الحادثة على النحو التالي :

"كنت جالسة ألاعب البنات ، وإذا بي أسمع طلقات رصاص متتالية ، فملكني حزن شديد ، وأسرعت إلى شرفة البيت ، لاعتقادي أن القتل أنت ولا أحد غيرك ، ذلك لأنه تزامن مع وقت عودتك ، لكنني ورغم زوال قلقي حين وجدت القتيل غيرك اندمشت مما حدث ، فقد رأيت رجلاً مرمياً على الأرض ، وشابان يلبسان بنطلونات "جينز" يطلقون النار عليه ، وبعد أن تأكدا من قتله ، فرأ مسرعين ، في تلك اللحظات كان كل سكان الحي الذين يعرفونه ، أو لهم علاقة به يفرون هارين ويتركونه لمصيره ، ويفلقون أبوابهم ، باستثناء امرأة واحدة كانت تصرخ بشدة مطالبة الناس بنجدها ، ولكن لا أحد لبى دعوتها، بعدها بدقائق أقبلت ابنته ذات العينين الخضراوين والبالغة من العمر عشرة سنوات ، وأخذت تناديه ، وحين أدركت أنه مقتول بدأت تصرخ بأعلى صوتها وقد ارتجت عليه ، لحظتها خرج الجيران من مساكنهم وكانهم يعلمون بالحادث لأول مرة ، ومن شرفة البيت كنت أرى العديد من الأمهات يمنعن أبنائهن الكبار من الخروج لرؤيته أو حمايته ."

وبعد أن أنهت زوجتي رواية القصة المؤلمة ، قلت لها : سوف تزورنا الجماعات هذه الليلة، وحين لمحت في عينيها القلق ، أبلغتها بأنني كنت

أسخر فقط ، وبالفعل كنت كذلك.

المدّهن أن زوجتي كانت الشاهد الوحيد على اغتيال ضابط الشرطة الذي كان مفتش ، وهو جار لنا لكن لم نكن على علم بذلك ، وقد حاولت زوجتي أن تجعل بناتنا الصغيرات بعيدات عن مظهر القتل ، لكن بعد زمن عرفت أن ابنتي الكبرى "الشيما" وكان عمرها آنذاك ست سنوات ، قد شاهدت عملية القتل من بدايتها لنهايتها في ذلك اليوم .

إذن الفرع حلّ بي على المستوى الأسرى ، ذلك لأننا قضينا ليلتنا في هلع ، وماكاد منتصف الليل ينجلي ، حتى أرهقنا وخلدنا إلى النوم ، نوم الخائف طبعاً ، وحين كانت الساعة الثالثة إلا عشرة دقائق صباحاً ، بكت ابنتي الصغرى "رفيدة" تريد الرضاعة ، وعندما بدأت أمها ترضعها أحست بأن هناك من يحاول فتح شبّاك نافذة البيت ، لقد كنا في الدور الأول مباشرة ، وأيقظتني من النوم ، وأخبرتني بما يحدث ، فكان ردي : " إن هذا من آثار العملية التي شاهدها هذا اليوم " .

بعدها بشوان تأكدت أن قولها صحيح ، فأسرعت إلى غرفة المكتب ، لأجد رجلين يحاولان كسر شبّاك النافذة ، ودون وعي مني أسرعت إليهما فطلبا مني أن أفتح النافذة ففعلت .

وحين دخلا وقف أحدهما مُكشّماً ووجهه مسدس لرأسي ، في حين كان الثاني عاري الوجه ، ولم أتمالك نفسي من الخوف ، وحين لاحظا عني ذلك أسرعوا بي إلى كرسي في المكتب وأجلساني عليه ، ووجها لي أسئلة عديدة

منها : "أين بركات عبدالغني ؟

وقبل أن أرد على سؤالهما دخلت زوجتي ، فأمرأها بالخروج ، وقال أحدهما لها : لاتخافي إنا رجال شرطة ، فعادت من حيث أتت ، وهي لا تزال مذعورة ، وقد قالت بعد ذلك : إني كنت أنتظر سماع صوت صراخك حين يقتلوك ، وكان خوفي يقل تدريجيا كلما تأكدت أنك ما تزال تتحدث معهم .

أجبت الشرطين بعدم معرفتي للشخص اللذان ذكراه ، فلم يقتنعا بكلامي ، واستمرا في استجوابي ، وسألاني ما هي وظيفتك ؟ والإجابة على هذا السؤال تعد من أصعب الإجابات في حياتنا الصحفية آنذاك ، ولحد الساعة لأدري لماذا جاء ردي سريعا : وظيفتي صحفي ، لحظتها اعتذرا إليّ ، وقررا الخروج ، وحين فتحت لهما الباب وجدت آخرين يطوقون البيت ، وحين ذهبوا جميعا ، أبصرتهم من نافذة البيت فوجدتهم مجموعة كبيرة جاءت بثلاث سيارات ، ومن لحظة خروجهم إلى غابة إشراقة الشمس ، ظلت نافذتي مفتوحة ، والخوف يفتك بنا .

إن الذين زاروني تلك الليلة ، ودخل منهم اثنان فقط ، ملامحهم توحى أنهم من رجال الأمن ، بدليل أن اللذين دخلا البيت لم يأخذا من عندي أية وثائق ولا صور ولا نقود ، وقد كانت جميع هذه الأشياء أمامهما ، بل إنهما على العكس من ذلك حاولا ألا يقتربا من تلك الوثائق ، صحيح أن المسدس الذي وجهه أحدهما لرأسي أخافني ، لكن لم أشعر أن لحظة انتهاء أجلي قد حانت ، وهذا الشعور بالطمأنينة لا يأتينا عادة -في ذلك الوقت-

إلا إذا تأكدنا أن الذين يحققون معنا ليسوا من الجماعات المسلحة .

وفي صباح اليوم التالي عمّ خبر اقتحام رجال الأمن لبيتي ، والشخص الذي مثلت عنه ، هو رجل متهم بقتل عناصر من الأمن ، وينتمي للجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وقد حوكم وبرأته المحكمة بسبب حالته العقلية ، وعلمت أيضا أنه كان يسكن في إحدى العمارات القريبة منا .

لكن بالليل حين استجوبت اعتقدت أن 'بركات عبدالغني' هذا هو ضابط الشرطة الذي قتل مساء اليوم السابق، ذلك لأنني - كما ذكرت - لم أكن على سابق معرفة به ، بل إنني لم أكن على علم بوجود شرطي يسكن جوارنا ، وربما يعود ذلك لكوني أراه دائما بملابس مدنية يداعب ابنته .

في يوم اغتياله تتبعه المجرمان من مسافة بعيدة وأصرا على قتله أمام بيته، وقد كان اغتياله ضربة كبيرة لرجال الأمن، إلا أننا بعد أن دفناه وعدنا في اليوم التالي .. روجت شائعات مفادها أن زوجته هي التي كانت وراء اغتياله ، لأنه تزوج بامرأة أخرى ، ثم انضح أن هذا الكلام غير صحيح بالمرّة وهو من نوع التبريرات التي تقدمها الجماعات وتروجها ليأخذ بها الرأي العام .

في هذه الأثناء كانت السلطة قد أطلقت سراح بعض قيادات الإنقاذ ، وكنت على صلة سابقة بأحدهم ، فزرتة مهنتاً بإطلاق سراحه ، وأتذكر أنني سألته لحظتها : "هل الرئيس 'اليامين زروال' جاد في الحوار معكم ؟ أجابني : "إنه جاد بالفعل" ، ولكنه أضاف : "أن هذا الرجل لا يملك أمره ، وأن

هناك مجموعة تتحكم فيه كيفما تشاء" ، فعلقت ساخرا آنذاك بقولي :
"صحيح هو لا يملك أمره بدليل أنك أنت الآن خارج السجن " .

و حين سألته عن موقف حزبه من أعمال العنف التي تقوم بها الجماعات
أجابني : "إننا نرفضها ، ونملك الشجاعة في الوقوف ضد الجماعات ، لكن
لا بد من نزولنا إلى الميدان للتأكد من مدى مسئولية الجماعات ، لأن غيابنا
في السجن حال دون معرفتنا لكثير من الحقائق " .

وعذرته فيما يقول ، وانتظرت كباقي المواطنين موقفاً واضحاً من الإنقاذ
تدين فيه الجماعات ، وبعدها بمدة قليلة زرته ثانية .. وسألته عن موقفهم من
العنف ، فلم يقدم إجابة مقنعة ، ومن ساعتها قررت أن اتخذ موقفا رافضاً
وناقدا للجهة الإسلامية للإنقاذ .

عدت بعدها إلى الجريدة وعقدت اجتماعا لكل أسرة التحرير ، وأعلنت
أمام مديرها وصاحبها : ضرورة تغيير خط الجريدة ، أو تغيير رئيس
التحرير ، وحين سئلت عن السبب ، أبدت موقفني العلني من أن الجبهة
الإسلامية للإنقاذ التي كنا ندافع عنها باعتبار أنها حزب ظلم ، هي الآن لا
تقف ضد الظلم الذي تُزهق بسببه أرواح المئات من المواطنين ، وكانت هذه
الواقعة من بين الأسباب الرئيسية التي عجلت بسفري من الجزائر .

والواقع أن النقاش مع القائد الإنقاذي السابق لم يكن هو السبب
الوحيد والمباشر لسفري ، وإن كان من بين الأسباب الرئيسية - كما ذكرت
سابقا - فقد استقلت من الجريدة وقررت أن أفتح مكتبا مستقلا للأخبار ،

بشكل وكالة أنباء صغيرة ، وبدأت بالفعل في اتخاذ الإجراءات ، وسميتها شركة "الهدهد للإعلام والصحافة" .

لكن ما حدث في حياتي الخاصة ، غير كل تفكيري السابق ، وعجل بهجرتي .

ذلك أن الجماعات المسلحة بعثت برسالة تهديد إلى زوجتي تخبرها أنها ستنفذ فيها حكم القتل قريباً ، لكونها تثبط عزائم المجاهدين ، وطالبتها باستحضار حجتها أمام الله ، بل ذهبت الجماعة في رسالتها إلى القول: "إنك تثبطين عزيمة ومهمة المجاهدين معتمدة على فتوى شيخك" محفوظ نحنناح".

والرسالة كانت مشار الدهشة ، لأن "شهر زاد العربي" عرفت بمداфعتها الشديدة عن التيار الإسلامي ، لكنها في نفس الوقت لم تكن تنتمي لأي تنظيم ، وكانت ترى أن الدفاع عن المشروع الإسلامي طبقاً للممارسة الديمقراطية ليست مهمة الإسلاميين فقط ، وإنما مهمة جميع الذين يؤمنون بالديمقراطية ، لذلك حين وجهت إليها تلك الرسالة أحست بضعف المستوى الثقافي للجماعة ، وبضيق الأفق ، وبعدم فهم الآخر .

وللعلم فإن هذه الرسالة جاءت بعد كتابتها لمقال في جريدة "الحقيقة" يدين العنف ، ويخلص إلى أن استمرارية الجماعات في ارتكاب المجازر ضد المواطنين ، سيجعلهم مثل البلاشفة في الاتحاد السوفيتي .

هكذا إذن صار الفرع عاماً لكل أفراد الأسرة ، وصرنا نقضي ليلنا

ساهرين خوفا من مباغطة الجماعات المسلحة لنا ، ومع ذلك فقد حاول بعض الأصدقاء التخفيف من حدة ما نواجهه، إما قناعة ، وإما فقط لإخراجنا مما نحن فيه على المستوى النفسي ، من ذلك اعتبار رسالة التهديد غير ذات أهمية أو القول بأن تيارات أخرى أرسلتها وليس الإسلاميون ، إلى غير ذلك من المبررات ، ولم تكن مثل هذه الأقوال لتغير من حالتنا النفسية أو بالذات زوجتي على اعتبار أنها هي المعنية مباشرة بما ورد في الرسالة .

كانت تقضي الساعات ليلا ونهارا تتأمل بناتها الثلاث ، ونعيش على اعتقاد أننا لو بقينا في الجزائر سنكون ضحايا بلا شك ، وقد تزامن وصول التهديدات إلينا ، مع اغتيال كثير من الزملاء الصحفيين ، ولم تكن محاولات التخفيف مني مجدية وذلك أمر طبيعي ، لكون أنا نفسي كنت في حالة فزع.

والواقع أن رسالة التهديد التي وصلت زوجتي تعني ببساطة أن كلا منا صار مهدداً ، وأن الخاسر الأكبر في العملية سيكون بناتنا الثلاث، وأمام هذه الحالة كان لابد من معرفة وجهة نظر الجهات الأمنية ، وعن طريق بعض الأصدقاء ، أبلغوني ضرورة سفر العائلة من العاصمة إلى منطقة أخرى حتى تهدأ الأمور ، وقد أخذت بالنصيحة ، وسافرت زوجتي إلى أهلها في الشرق الجزائري .

بعد وصولها بأيام قليلة ، قامت جماعة إرهابية بمطاردة أحد الأشخاص، وأطلقت النار عليه ، غير أنه نجى، وكان هذا الشخص يسكن

على مقربة من بيت أهلها ، مما أثر سلباً على حالتها النفسية ، وكنت آنذاك خارج الجزائر ، وبالرغم من أنها حين أبلغتني الخبر هدأت من روعي إلا أنني عشت لحظات قلق وفزع على الأسرة كلها وأنا خارج البلاد .

أما بالنسبة لحادثة الاقتحام لبيتي ، فقد أبلغني بعض الأصدقاء ، أنه لاحمابة للصحفيين في المستقبل ، وأنه ليس هناك من حل إلا الهجرة ، ففكرت في الأمر لأول مرة ، وأبدت زوجتي فكرة الهجرة لأي مكان ، لكنني آنذاك لم أكن قد رنبت سفري ، فاضطرت إلى التفكير في الاتجاه .

عرض على أحد الأصدقاء العراقيين المهاجر في السويد أن أهاجر هناك ، كما عرض على أحد أساتذتي المصريين - وهو الأستاذ والمربي الفاضل الدكتور محمد حافظ دياب - العمل معه في إحدى الجامعات الليبية ، فقررت السفر هناك بالفعل ، لكنني في آخر لحظة غيرت وجهتي إلى القاهرة ، حين عرضت على جريدة الشروق التي كنت أراس تحريرها أن أصبح مراسلها المتجول مع إقامتي في القاهرة ، فكان لها ذلك ، وكان هذا الحل أجدي إلى بحكم علاقتي القديمة بمصر ، ثقافياً وعلمياً وإعلامياً .

والمشكلة رغم أنها تفاقمت حيث لم تتح لي فرصة التحرك أو الاتصال ببعض الأصدقاء لإنهاء التزامات بعينها ، إلا أنها قدمت لي نوعاً من الاستقرار النفسي ، لكن هذا لا ينفي أن معظم آمالي قد ضاعت ، وأن المواجهة المكشوفة التي كنت أعتمدها ، وعدم الانتماء لأي تنظيم لم تكن مجدية ، لكثرة التداخل بين المواقف السياسية وتعدد المصالح والجماعات .

لقد تركت الجزائر مرغما ، ومع ذلك كله أقول أنه ورغم التهديدات التي وصلتنا ، لم أكن على قناعة بأنه هناك من يترصد بنا ، وأن هناك فائدة لكثير من اللذين يعادون التوجه العربي الإسلامي في مغادرة كثير منا البلاد.

أذكر أننا ونحن نركب الطائرة متجهين إلى القاهرة كانت على الصفحة الأولى لمعظم الصحف صورة "أبو عبد الله أحمد" ، أمير الجماعة المسلحة ، الذي وقع على رسالة التهديد التي وجهت لزوجتي ، وحينما شاهدت صورته، قلت لها : مادامت قوات الأمن قد تمكنت من اغتياله ، فلا داعي لسفرنا الآن ، ردت : سيظهر أمير آخر وسيتواصل العنف ، وكانت محقة فيما تقول فمنذ ذلك التاريخ وإلى غاية كتابة هذه الكلمات (صيف ١٩٩٨) عرفت الجزائر العديد من أمراء الجماعات ، حتى أنهم أصبحوا أكثر من الجماعات نفسها .

هذه أيام فزع متفرقة ، تجمع بأنه لا يمكن الفصل بين ما هو قضية خاصة وقضية عامة ، فقد بدأت العمليات كما رأينا كتصفية لرجال الشرطة ، ووصلت الآن إلى قتل عامة المواطنين، وتلك هي دالة الإرهاب في الجزائر ، تزيد فترات وتنقص أخرى ، وقد لاحظنا أن زيادتها ترتبط بالأحداث الهامة والكبرى في الجزائر ، غير أنه مع ذلك فإن الجماعات تدرك أنه لن تسقط الدولة ، لكنها بدورها لن تترك الذين يشاركون في الشرعية يهأون بما يحققون .

وفي نظر الجماعات يبدو غير مهم في الوقت الراهن من الذي يصيبه

الفرع ، أو حتى من الذي يسقط ضحية أعمالها ، لكن المهم بالنسبة لها أن تجعل كل الجزائريين في حالة ذعر وخوف ، والذي يتحدث رافضيا ، ولا يهادنها ؛ يدفع حياته ثمناً ، وحين كان صديقنا الصحفي "لحسن سعد الله" ، يهاجم الجماعات في كل جلساته ، كان بعض الأصدقاء يلومونه على ذلك ، بحجة أن الجماعة لن تتركه حياً ، وقد كنت رأيت قبل سفري بأيام قليلة وهو على نفس الموقف.

بعد شهر من وصولي إلى القاهرة اغتالته الجماعات ، وما روي لي عن أطفاله كان مشهداً مأساوياً ، إذ قبل أن تؤخذ جثته للدفن ، اقترب منه أحد أبنائه الصغار قائلاً : "أعرف أن والدي نائماً فقط ، وسيقوم بعد حين " ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فبالطبع لن يعود "سعد الله" ، كما لن يعود غيره ، لذلك مهما حاولنا أن نبعد الفرع عنا سيظل يطاردنا على المستوى الشخصي والعائلي والاجتماعي والمجتمعي .

إن الغرض من هذه الفصول ليس سرد جوانب فقط من حياة صحفي هايش الإرهاب من قرب واكتوى بناره ، وإنما هدفها - كما ذكرت في البداية - علم إعطاء فرصة لاستمرار الإرهاب في بلادنا العربية .. إنه يبدأ بشكل فردي ، وينتهي إلى تدمير مجتمع بأكمله ، وبغض النظر عن التمويل الخارجي والدعم لجماعات العنف المختلفة في الجزائر وفي المنطقة العربية ، وأيضاً بغض النظر عن قبول المجتمع أو رفضه في البداية ، فإن الإرهاب لا يضيع الآمال والطموحات الكبرى فقط، ولكنه يدخل الأمة في حرب استنزاف طويلة الأمد .

إن تلك الحرب آثارها تختلف عن الحروب الأخرى في كونها مع الإنسان وأخيه ، ولا وجود لعدو فيها ، ويمكن القول أنها حرب تنشيء أعداءً جددًا من بني الوطن والأمة الواحدة وتلك خطورتها .. إنها فزع دائم، لن تبعده الهجرة ؛ لأن الارتباط بالوطن والأهل يظل قائما، ولا البقاء في المواجهة ؛ لأن الضحايا سيكونون لصالح أطراف بعينها ، وقد جربت الاثنين معاً ، وأتمنى ألا تتكرر هذه التجربة للإنسان العربي خاصة ، ولا للبشر جميعهم .

الفهرس

المقدمة :	٥
الفصل الأول : كومانديوس أفغان في شوارع العاصمة	١١
الفصل الثاني : الفرع من القصبة إلى عناية	٢٧
الفصل الثالث : صحفيون في طوابير الاغتيال	٤١
الفصل الرابع : رياح الخوف في ليالي العمر	٥٥
الفصل الخامس : الهجرة المفاجئة	٧١

المؤلف

خالد عمر بن ققنه

- كاتب وصحفي جزائري ، يكتب في العديد من الصحف والمجلات العربية .
- رئيس تحرير سابق لجريدة العهد الأسبوعية والشروق العربي بالجزائر
- أستاذ محاضر بجامعة العلوم والتكنولوجيا - وهران - الجزائر سنتي ١٩٩٠ ،

١٩٩١

صدر له :

- (١) الإسلام وحضارة الانتحار ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، ١٩٨١ .
- (٢) خصائص الاقتصاد الإسلامي ، دار الصفاء ، الجيزة ، ١٩٨٤ .
- (٣) الجهاد والثورة بالاشتراك مع الكاتبة شهر زاد العربي ، دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٩٩٢ .
- (٤) فصول من قصة الدم في الجزائر ، دار الحكمة ، القاهرة ، ١٩٩٦
- (٥) اغتيال بومدين الوهم والحقيقة ، ط١ ، دار الغد العربي ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ط٢ ، قصر الكتاب البليدة الجزائر ١٩٩٧ .
- (٦) إيران : الحرب والنساء ، مديولي الصغير ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
- (٧) رئيس على موعد مع الموت ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ١٩٩٨ .

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة		صعبدى صُح	د. عزة عزت
لبلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	الشاعر والحرامي	عزت الحريري
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين	فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
نباريح الوفائع والجنون	إدوار الخراط	إبنارو	د. على فهمى خثيم
رفرفة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	خوات الجحش الذهبى	لوكيس ليريس ترجمة د. على فهمى خثيم
مخلوقات الأنشواق الطائفة	إدوار الخراط	سراديب	عفاف السيد
دنا فتدلى (من دفاتر العدوين ١)	جمال الغيطانى	الزجاج للكسور	د. غبريال وهبه
مطربة الغروب	جمال الغيطانى	ينابيع الحزن والسرة	فتحى سلامة
دموع إبليس	حسنى لبيب	حبرات أنوية	قاسم مسعد عليوة
أحرار رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى	ترانزيت	ليلى الشريينى
مسالك الأحبة	خيرى عبد الجواد	مشوار	ليلى الشريينى
العاشق والعشوق	خيرى عبد الجواد	الرجل	ليلى الشريينى
حرب ايطاليا	خيرى عبد الجواد	رجال عرفتهم	ليلى الشريينى
حرب بلاد منم	خيرى عبد الجواد	الحلم	ليلى الشريينى
حكايات الديب رماح	خيرى عبد الجواد	النغم	ليلى الشريينى
فى لهيب الشمس	رأفت سليم	الخروج إلى النبع	محمد قطب
أنا كنبه	كيروجا ترجمة: رزق أحمد	رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
سيرة عزة الجسر	سعد الدين حسن	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
شجرة الخلد	سعد القرش	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
شهقة	سعيد بكر	نسبح الأسماء	منتصر القفاش
أيام هند	سيد الوكيل	خافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق	فرد حمام	يوسف فاخوري
جسد فى ظل	عبد النى فرج	مسرح ..	
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان	هذه اللبلة الطويلة	د. أحمد صدقي الدجاني
لبس هناك ما يبهج	عبد خال	اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
لا أحد	عبد خال	ملكة الفرد	محمود عبد الحافظ

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسير
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسير
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
بصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لفتدى	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيا تنادينا	طارق الزباد
إنهض قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعنق	مجدى رياض
غربة الصبح	محمد الفارس
وتس	محمد الحسينى
لبالى العنقاء	محمد محسن
غنمة فى حجر صيادها	ناجى شبيب
العجوز للراوغ يبيع أطراف السهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العنق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

دراسات ..

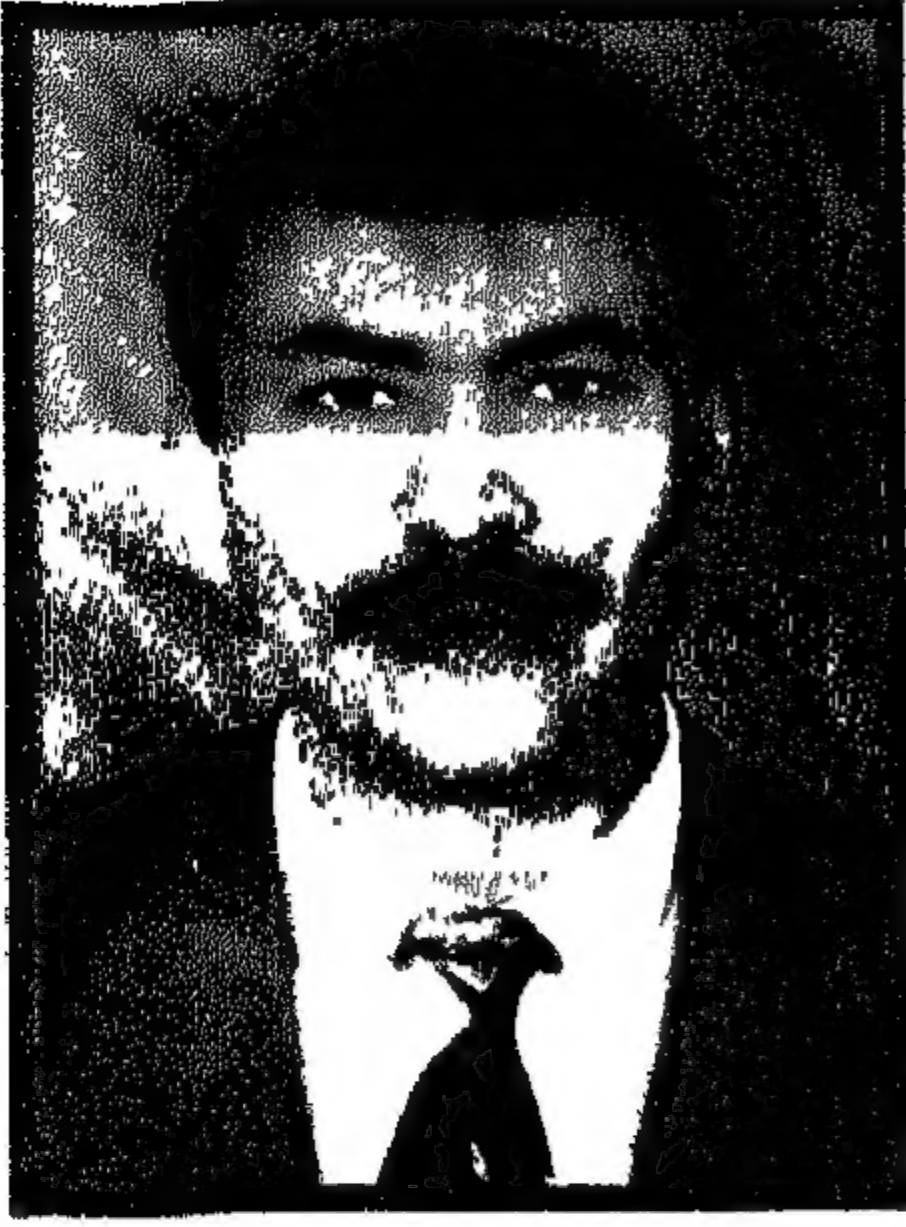
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصار الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعاش فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب فى ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العصرية والإمام فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العرس	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
رأس الرواية : صوت اللحظة الصائبة	مجدى إبراهيم
فى الرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الفتى

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاية الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة للدنية لابن المقفع	

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة
الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



أيام الفزع فى الجزائر

حين تفزع من الإجرام فإنك لحظتها تكون فى منتهى الرشد الإنسانى ، فإذا كان الفزع محاولة لإنهاء حياتك أو لإلغاء عقلك ووراثة دينك ؛ فإن عليك محاربته بكل الوسائل وتنبيه الآخرين على أن كل قضية خاصة هى فى أساسها قضية عامة والعكس صحيح أيضاً .

وقبل أن يعم الإجرام كل البلاد العربية ، ولا نجد لحظتها مكاناً نهاجر إليه ؛ فعلينا أن نبين كيف بدأ الفزع فى الجزائر ؟ وإلى أين وصل ؟

أيام الفزع هذه ، جانب من حياة الكاتب والصحفى الجزائرى "خالد عمر بن ققه" كتبت بآهاته وآلامه يرويها من عمق التجربة ؛ لذلك فهى قضية عامة تهّم كل مواطن عربى ، بل تهّم البشر جميعهم ، وقد كتبت من أجل إحلال الأمان.

الناشر

